شفيق جرادي

الناحية المقدّسة

تحرير: منى الحسيني



دار المعـارف الحكميـة
Dar Al maaref Alhikmiah

الناحيــة المقدســة

اسـم الكتــــاب: **الناحيـة المقدسـة**

المـــــؤلــــــف: الشيخ شفيق جرادي

النـــــاشـــــر: **دار المعـارف الحكميـــة** (للدراسات الدينية والفلسفية)

إخراج الكتــاب: Idea Creation

عدد الصفحات: 110

القيـــــــــاس: 21.5x14.5

تــاريخ الطبـــع: حزيران ٢٠٠٨

الناحيـــة المقدســـة

شفيق جرادي

الطبعة الأولى

[١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م]



العنوان: حارة حريك - الشارع العريض - سنتر صولي - ط٢ شمالي
تلفاكس: ٠١-٥٤٤٦٢٢ - Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـرس

مداخــــل

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

مقدّمة

الحديث حول الزيارات المسنونة والمستحبة للنبي ﷺ وآله الأطهار عليهم السلام .. حديث تختلط فيه نية القربى إلى الله سبحانه، بالتواصل مع من نزوره من النبي ﷺ والآل عليهم السلام، وطلب الشفاعة منهم في مقاصدنا الدنيوية والأخروية التي كلها بحسب المفروض ترتبط بالولاء لله عز وجل.. كما وأن فيها التوجه بحرمة من نزور وبجاهه عند الله، بالدعاء وطلب الحاجة، بل الحاجات الروحية والإيمانية والأخروية والدنيوية..

والزيارة إضافة لما أوردناه من مقاصد، تشكّل وجه العلاقة الإيمانية التي يبني بموجبها المؤمن الموالي روح بناءاته النفسية والسلوكية؛ الثقافية والعملية، كما يبني وجه علاقته مع الجماعة التي ينتمي إليها برباط الولاء الرسالي للنبي والآل..

من هنا كان للزيارة تأثيراتها الخاصة في تشكيل الهوية العقائدية والهوية الكيانية عند الشيعة بالخصوص، وعند المعتقدين بالتواصل مع الأولياء عموماً..

وما شرحنا لهذه الزيارة المعروفة بـ «زيارة الناحية» إلا من باب

العمل على دخول بعض دلالاتها ومضامينها وتأثيرها في الثقافة والعقلية الشيعية.

ويهمنا هنا الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو عبارة عن محاضرات كانت قد ألقيت بمناسبة عاشوراء.. ولقد تمّ جمعها وتقريرها من قبل السيدة الفاضلة منى الحسيني.. التي إذ أتقدّم منها ببالغ الشكر على جهدها.. فإني أشكر كل الذين عملوا وسعوا وشجعوا لإخراج هذه المحاضرات بحلتها الحالية..

راجياً من اللّه سبحانه التسديد وقبول الأعمال.

شفيق عبد الله جراده

مداخـــــل

I

الزيارة عند الشيعة

ورد في كتاب كامل الزيارات أن لقاءً أسريّاً جمع النبي ﷺ مع أمير المؤمنين عليه السلام وابنته السيدة الزهراء عليها السلام، وولديهما الحسن والحسين عليهما السلام، حيث كانوا يتناولون بعضاً من الطعام.

ويذكر الراوي: فلمّا فرغ الرسول ﷺ من غسل يديه، مسح وجهه، ثم نظر إلى علي وفاطمة والجسن والحسين نظراً عرفنا به السرور في وجهه، ثم رمق بطرفه نحو السماء ملياً، ثم أنه وجّه وجهه نحو القبلة، وبسط يديه ودعا. ثم خرّ ساجداً وهو ينشج[1] فأطال النشوج، وعلا نحيبه، وجرت دموعه. ثم رفع رأسه وأطرق إلى الأرض، ودموعه تقطر كأنها صوب[2] المطر. فحزنت فاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام، وحزنتُ معهم، لما رأينا من رسول الله ﷺ.

قررنا أن نسأله، حتى إذا طال ذلك، قال له علي عليه السلام وقالت له

(١)- ينشج من فعل نشج، ويقال: نشج الباكي ينشج نشيجاً؛ إذا غصّ البكاء في حلقه عند الفزعة (را:كتاب العين، الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط٢، ١٤٠٩، ج٦ن ص٣٧).

(٢)- صوب المطر نزوله (را: الطريحي، الشيخ فخر الدين الطريحي، تحقيق السيد أحمد الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط٢، ١٤٠٨، ج٢ص٦٤٢).

فاطمة عليها السلام: ما يبكيك يا رسول الله، لا أبكى الله عينيك، فقد أقرح قلوبنا ما نرى من حالك. فقال: يا أخي سررت بكم سروراً ما سررت مثله قط. وإني لأنظر إليكم، وأحمد الله على نعمته عليَّ فيكم، إذ هبط عليّ جبرائيل عليه السلام، فقال: يا محمد، إن الله تبارك وتعالى اطّلع على ما في نفسك، وعرف سرورك بأخيك وابنتك وسبطيك، فأكمل لك النعمة وهنأك العطية، بأن جعلهم وذرياتهم ومحبّيهم وشيعتهم معك في الجنة، لا يفرّق بينك وبينهم، يُحبوّن كما تُحبى، ويُعطون كما تعطى، حتى ترضى وفوق الرضا على بلوىً كثيرة تنالهم في الدنيا، ومكاره تصيبهم بأيدي أناس ينتحلون ملتك، ويزعمون أنهم من أمتك، براءٌ من الله ومنك، خبطاً خبطاً وقتلاً قتلاً، شتىً مصارعهم، نائية قبورهم، خيرة من الله لهم ولك فيهم. فاحمد الله عز وجل على خيرته وارض بقضائه. فحمدتُ الله ورضيت بقضائه بما اختاره لكم.

ثم قال لي جبرائيل: يا محمد، إن أخاك مضطهد بعدك مغلوب على أمتك، متعوب من أعدائك، ثم مقتول بعدك. يقتله أشرّ الخلق والخليقة، وأشقى البريّة، يكون نظير عاقر الناقة، ببلد تكون إليه هجرته، وهو مغرس شيعته وشيعة ولده، وفيه على كل حال يكثر بلواهم ويعظم مصابهم. وإنّ سبطك هذا، ـ وأومى بيده إلى الحسين ـ، مقتول في عصابة من ذريتك وأهل بيتك، وأخيار من أمتك، بضفة الفرات، بأرض يقال لها: كربلاء، من أجلها يكثر الكرب[1] والبلاء على أعدائك، وأعداء ذريتك في اليوم الذي لا ينقضي كربه ولا تفنى حسرته[2] (يوم القيامة). وهي أطيب بقاع الأرض، وأعظمها حرمة، يقتل فيها سبطك وأهله، وإنها من بطحاء الجنة.

---

(١)- كرب: الكرب الغم الذي يأخذ النفس (مجمع البحرين، ج٤، ص٢٨).

(٢)- حسر: يقال حسر إذا أعيا وانقطع وكلّ (ج١، ص٢٠٨).

فإذا كان ذلك اليوم، الذي يقتل فيه سبطك وأهله، وأحاطت به كتائب أهل الكفر واللعنة، تزعزعت الأرض من أقطارها ومادت الجبال وكثر اضطرابها، واصطفقت البحار بأمواجها، وماجت السماوات بأهلها، غضباً لك يا محمد، ولذريتك، واستعظاماً لما ينتهك من حرمتك ولشرّ ما تكافى به في ذريتك وعترتك. ولا يبقى شيء من ذلك، إلا استأذن الله عز وجل في نصرة أهلك المستضعفين، المظلومين الذين هم حجة الله على خلقه بعدك.

فيوحي الله إلى السماوات والأرض والجبال والبحار ومن فيهنّ: أنّي أنا الله الملك القادر، الذي لا يفوته هارب، ولا يعجزه ممتنع، وأنا أقدر فيه على الانتصار والانتقام. وعزّتي وجلالي، لأعذبنَّ من وتر رسول الله وصفيّي، وانتهك حرمته، وقتل عترته، ونبذ عهده، وظلم أهل بيته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين.

فعند ذلك، يضج كل شيء في السماوات والأرضين، يلعن من ظلم عترتك، واستحلّ حرمتك، فإذا برزت تلك العصابة إلى مضاجعها (الذين يقاتلون معه عليه السلام)، تولى الله عز وجل قبض أرواحها بيده، وهبط إلى الأرض ملائكة من السماء السابعة، معهم آنية من الياقوت والزمرّد مملوّة من ماء الحياة، وحلل من حلل الجنة، وطيب من طيب الجنة، فغسّلوا جثثهم بذلك الماء، وألبسوها الحلل، وحنّطوها بذلك الطيب. وصلّت الملائكة صفاً صفاً عليهم.

ثم يبعث الله قوماً من أمتك، لا يعرفهم الكفار، لم يشركوا في تلك الدماء بقول ولا فعل ولا نية، فيوارون أجسامهم، ويقيمون رسماً لقبر سيد الشهداء بتلك البطحاء، يكون علماً لأهل الحق، وسبباً للمؤمنين

إلى الفوز، وتحفّه ملائكة، من كل سماء مئة ألف ملك، في كلّ يوم وليلة، ويصلّون عليه ويطوفون عليه، ويسبّحون الله عنده، ويستغفرون الله لمن زاره، ويكتبون أسماء من يأتيه زائراً من أمتك، متقرّباً إلى الله تعالى وإليك بذلك، وأسماء آبائهم وعشائرهم وبلدانهم. ويوسمون في وجوههم بمسيم نور عرش الله: هذا زائر قبر خير الشهداء، وابن خيرة الأنبياء. فإذا كان يوم القيامة، سطع في وجوهم من أثر ذلك الميسم، نور يغشى منه الأبصار، يدلّ عليهم، ويعرفون به.

وكأنّي بك يا محمد بيني (جبرائيل) وبين ميكائيل، وعلي أمامنا، ومعنا من ملائكة الله ما لا يحصى عددهم ونحن نلتقط من ذلك الميسم في وجه من بين الخلائق، حتى ينجّيهم الله من هول ذلك اليوم وشدائده، وذلك حكم الله وعطاؤه، لمن زار قبرك يا محمد، وقبر أخيك، وقبر سبطيك، لا يريد به غير الله عز وجل.

وسيجتهد أناس، ممن حقت عليهم اللعنة من الله والسخط أن يعفو[1] ذلك القبر ويمحو أثره، فلا يجعل الله تبارك وتعالى لهم إلى ذلك سبيلاً.

ثم قال رسول الله ﷺ: **فهذا أبكاني وأحزنني.** [2]

الملاحظ، أنه حينما تحدّث الرسول ﷺ عن مكان استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام، عبّر أنه سيقتل ببلد تكون إليه هجرته، وهو مغرس شيعته وشيعة ولده. أي أنّ مكانه هو مكان الغرس. ففيه بذور انطلاق شيعة محمد وآله الطاهرين عليهم السلام. وتكتمل المشايعة عند الإمام

---

(١)- العفو من عفا، ويقال: عفا يعفو؛ أي محا الأثر (را: لسان العرب،م.س، مادة عفا، ج١٥ص٧٢).

(٢)- القمي، جعفر بن محمد بن قولوية كامل الزيارات تحقيق جواد القيومي، مؤسسة نشر الفقاهة، ط١، ١٤١٧هـ، ص٤٤٨.

الحسين عليه السلام حيث أعلن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن قبره سيكون علماً لأهل الحق، وسبباً أي طريقاً للمؤمنين إلى الفوز.

وهنا نلفت ولو استطراداً أن:

الملفت في زيارة المرقدين الشريفين، أن الزائر إضافة إلى ما قد يحصل عليه من الأجر والثواب، فإنه يحصل عنده بشكل تلقائي شعورٌ من الراحة النفسية عند زيارة أمير المؤمنين عليه السلام بالخصوص. وكأنه في هذه الزيارة قد اتصل أو تواصل مع الكهف الآمن الحصين الذي يريده. في الوقت الذي يدخل إلى حضرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، أو بمجرّد دخول كربلاء، يشعر بحزن عميق خاص، يصيب قلبه الموالي. ولعلها من الدلائل التي تؤكّد أنه زائر بالفعل، وأن زيارته مقبولة. بمعنى أن تلك المشاعر هي بداية حركة التواصل الولائي.

كما ويتميّز ضريح أمير المؤمنين عليه السلام بميزة حسية فعلية، أوضحتها الأحاديث الشريفة، وهي أنّ الذي يدفن في جواره بأرض وادي السلام، يضمن حسن حياة عالم البرزخ، لأن العذاب لا ينزل على تلك الأرض الطاهرة.

لكن لا يعتقدنّ أحد بأنه إذا ارتكب المعاصي دونما توبة أو قصّر في واجباته الدينية، ثمّ دفن في هذه الأرض، سيحقّق نجاته! لأنّ الحياة الآخرة لا تقتصر على عالم البرزخ والقبر. فإنْ حصل على النجاة هناك، ماذا سيفعل بعدها؟ وفرضاً، أنّ هناك مؤمناً، كانت أمنيته أن يدفن في تلك البقعة المباركة، لكن الظروف لم تسمح لأهله في تنفيذ وصيته، ما العمل؟ هل يبقى بعيداً متحسّراً، في الوقت الذي يأخذ مكانه شخص لا يستحق ذلك؟

السيد عبد الله شبّر ذكر رواية في كتابه[1]، فيها الكثير من البشارة لأهل الولاء، يتحدّث مضمونها عن ملائكة تسمّى الملائكة النّقالة. وظيفتها تطهير تلك الأرض وادي السلام من الذين لا يستحقون شرف الدفن فيها، ونقلهم إلى وادي برهوت الذي يشعل قبور ساكنيه بنار جهنّم، والعياذ بالله. وأما الذين كانت أمنيتهم أن يدفنوا هناك ولم تتحقق، وهم أصحاب ولاء خالص صافٍ، تأتي إليهم تلك الملائكة لتنقلهم إلى حيث أميرهم ومحبوبهم، يتسامرون ويتحادثون حلقاً حلقاً، يهنأون ويتنعمون بجواره عليه السلام.

أما فيما يخصّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام، فإنّ مكان استشهاده أرض كربلاء قد خصّص لاستقبال قداسة جسده الشريف، فحصل على مميزات تفرّد بها، يمكن استنتاجها من الرواية المذكورة. وهي:

---

(١)- را: كتاب تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد، كما راجع، الشيخ جعفر النقدي، الأنوار العلوية والفوائد المرتضوية، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨١، ص ٤٣١عن الإمام الرضا عليه السلام ورد أن المؤمنين يحشرون من وادي السلام ، وغيرهم من حضر موت. وورد أن وادي السلام جنة الدنيا للمؤمنين. وورد لم يمت مخالف في أرض شريفة إلا حملته الملائكة النقالة، والظاهر قبل دفنه فقد حكي أن أيام المولى يوسف الكليد دار جاء بجنازة لتدفن في الأرض المقدسة فرأى الكليد دار أمير المؤمنين عليه السلام في منامه يقول له: يأتون غدا بجنازة على حمار يسوقها رجل، الميت أعور والحمار أعور والسائق أعور، فلا تقبل دفنها عندي، وإن أعطوك ملء الأرض ذهبا. فلما أصبح الصباح جاؤا بتلك الجنازة على تلك الأوصاف، فامتنع من دفنها، فبذلوا له مالا كثيرا! فقال في نفسه أدفنها ثم أخرجها وأنقلها من النجف! فقبض المال وامكن من دفن الجنازة في الحرم الأقدس ! . فلما كان الليل أتى ليخرجها ! وإذا بسلسلة رأسها عند الميت ، والرأس الآخر ينتهي إلى القبر المقدس ، وكذا رأى سلاسل أخر في باقي القبور . فلما ضمه الفراش ونام رأى أمير المؤمنين عليه السلام يقول له : يا يوسف لم تمتثل أمري وأمكنت من دفن الجنازة ، وما كفاك هذا ؟ حتى أردت أن تنقله بعد استجارته بي ؟ فتاب على يد الإمام عليه السلام وصار معدودا في زمرة الصلحاء . وحكاية الملائكة النقالة شائع جدا ، ووارد في الأخبار عن الأئمة الأطهار . ففي أمالي الشيخ عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن لله تعالى ملائكة موكلين ينقلون الأموات إلى حيث يناسبهم . وعنه عليه السلام أنه قال مشيرا إلى قبر الأول والثاني : فوالله لو نبش قبرهما لوجد في مكانهما سلمان وأبو ذر . . . إلى أن قال عليه السلام إن الله عز وجل خلق سبعين ألف ملك يقال لهم النقالة، ينتشرون في مشارق الأرض ومغاربها، فيأخذون كلا منهم مكانا يستحقه، وأنهم يسلبون جسد الميت، ويضعون آخر في مكانه، من حيث لا تدرون وتشعرون، وما ذلك ببعيد، وما الله بظلام للعبيد.

١- أنه مهوى القلوب الموالية:

بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام لم ينقطع إليه الزوار، من الأرض ومن السماء، فالناس يتوافدون إليه من كل بقاع الأرض، وفي نفس الوقت ينزل إليه من كلّ سماء مئة ألف ملك في كل يوم وليلة ثم منه يعرجون.

إذاً، هذا المكان المقدّس أصبح عملياً فيه وحدة كل الذين شايعوا وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام، وبالتحديد أبا عبد الله عليه السلام. فهو مهوى قلب كل موالٍ، سواء كان هذا القلب لعبد من عباد الله، أحبّ ابن بنت رسوله، أم كان نور مخلوق آخر يعتبر أشرف المخلوقات، وهو نور ملائكة الله سبحانه وتعالى.

٢- زيارته سبب لدفع آثار الذنوب:

إنّ الزائر لتلك البقعة الشريفة، إضافة إلى الأجر والثواب فإنه يحصل على دفع مكروه الذنب بالاستغفار الذي يتمّ تحصيله من قبل الملائكة الذين يستغفرون لزوار الإمام الحسين عليه السلام.

٣- سبب للنجاة والفوز:

ليس الموت إلا دفن الجسد المادي، في حين أنه حياة حقيقة الإنسان الحقيقية، تلك الحياة الباطنية التي كانت مستورة في عالم الدنيا، والمتشكّلة بحسب أعماله واعتقاداته وملكاته، بها يحشر، وبرجحان خيرها أو شرها تكون سعادته أو شقاؤه.

فالإنسان الذي قصد زيارة أبي عبد الله عليه السلام بنيّة صادقة وقلب سليم موالٍ، يكون قد مارس أفضل ما يغلب من أعمال التقرّب إلى الله تعالى. وهو بذلك يستحق ميسماً[1] من نور توسم به حقيقته الباطنية.

(١)- الميسم من وسم، ويقال الميسم الأثر، وميسم النور أثره (را: الفراهيدي، كتاب العين، ج٧ص٣٢٢).

ليس مجرّد نورٍ من أنوار الله، بل هو من نور عرشه عز وجل. فكأنما منذ تقدير الله الأزلي وقضائه كان اسمه موجوداً بين الأسماء التي سينالها نور رحمة الله في اليوم الآخر. لأنه كان من المحتسبين عند الله، يزور سبط النبي محمد ﷺ بنفس توّاقة وروح مشتاقة للقاء الله ولقاء أوليائه.

٤- مكان العزّة للمؤمنين:

هذا المكان المقدّس هو مورد عزة المؤمنين، لأنهم الناجون الموسومون بنور عرش الله، وأيضاً هو مورد مذلةٍ لكل من يريد بآل محمد عليهم السلام وشيعتهم شراً. وقد جهد الحاقدون أيام المتوكّل محو القبر الشريف[1]. لكنّ محاولاتهم باءت بالفشل بفضل الله تعالى. وفي فترة من الفترات القديمة، ذبح عشرات الآلاف من الموالين بين مقام العباس عليه السلام ومقام الإمام الحسين عليه السلام، على يد الوهابيين[2]. لكن المقام الطاهر بقي محفوظاً بمنّ الله تعالى، وبقي ملاذاً للزائرين العاشقين.

والذين لم يتمكنوا من الذهاب للزيارة بأجسادهم، إلا أنهم يتوجهون إليه من بعيد بنية صادقة وقلوب طاهرة وأرواح نقية، لا يمكن أن يخيّبهم الله عز وجل، ويحرمهم من الالتحاق بإمامهم وحبيبهم يوم القيامة.

---

(١)- را، تاريخ الطبري، ابن جرير الطبري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ج ٧ ، ص ٣٦٥ : أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق ، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه.

(٢)- في ٢٠ نسيان ١٨٠٢م. هاجم ١٢ ألف وهابي فجأة على ضريح الامام الحسين عليه السلام. وبعد أن استولوا على الغنائم الهائلة التي لم تحمل لهم مثلها أكبر الانتصارات تركوا كل ما تبقى للنار والسيف...وهلك العجزة والأطفال والنساء جميعا.... وبنتيجة هذه الكارثة الدموية هلك عشرات الآلف من الناس... ونقل الوهابيون ما نهبوه على أكثر من ٤٠٠٠ جمل . وبعد النهب والقتل دمروا أيضا ضريح الإمام الحسين عليه السلام وحولوه إلى كومة من الأنقاض والدماء. وحطموا خصيصا المنابر والقباب لأنهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من الذهب.

إذاً، كربلاء تجيرنا في الدنيا بحفظ التشيّع، وفي القبر إذ كانت موصولة بزيارة أمير المؤمنين عليه السلام، وفي اليوم الآخر حين الوقوف بين يدي الله عز وجل، لذا يجب معرفة حرمتها وقداستها، وأنها مستمدّة من حرمة وقداسة من نزور عليه السلام.

حرمة المكان، يحمل المكان في الإسلام قدسيةً خاصة، بحيث إن بعض الأمكنة ينبغي التعامل معها بحرمة استثنائية. فقد جاء في القرآن الكريم، أن الله سبحانه أمر نبيّه موسى بخلع نعليه في طوى، قائلاً: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[1]؛ لأن حرمة وقداسة وادي طوى[2] اقتضت هذا الأمر الإلهي لنبي استحق تكليم الله فيه. فنال هناك شرف مرتبة كليم الله موسى عليه السلام...

وفي نفس السياق تأتي الموارد التالية:

❖ حرمة مقام المعصوم.

إذ إن حرمة المقام لأي معصوم عليه السلام تأتي من كونه:

١- أنه بيت من بيوت الله تعالى حيث قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[3]. فمقام المعصوم له خصوصية اللحوق بالمسجد ولا يمثّل أمراً بديلاً عنه. والقداسة التي تحصل لأي مكان، إنما تحصل بعنوان أنه ملحق بالمسجدية وقد رفع ليذكر اسم الله عز وجل فيه.

٢- أنه بيت من بيوت رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، وهو إنما رُفع لحفظ إرث النبي صلى الله عليه وآله في حفظ رسالته، وللتأكيد على حفظ ذكره صلى الله عليه وآله. فنقول

---

(١) - سورة طه، آية ١٢.

(٢) - في بعض المرويات، أن وادي طوى هو وادي السلام، حيث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) - سورة النور، آية ٣٦.

حين الزيارة: اللهم إني وقفت على باب من أبواب نبيك وقد منعت الناس أن يدخلوا إلا بإذنه فقلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[1] اللهم إني أعتقد حرمة هذا المشهد الشريف في غيبته كما أعتقدها في حضرته[2].

إنّ هذه العبارة ربطت كل المقامات الشريفة بالنبي الأكرم ﷺ إضافة إلى أنّ كل واحد منها يعدّ بيتاً من بيوت الله، التي أمر تعالى أن ترفع ويذكر فيها اسمه. وحفظ حرمة ذاك المكان الشريف هي استمرار لحفظ ذكر النبي محمد ﷺ.

❖ حرمـة كربـلاء.

يلوذ المؤمنون ويستجيرون بأرض كربلاء ، لأنها تشرّفت بضم جسد سيد الشهداء، وسيّد شباب أهل الجنة أبي عبد الله الحسين عليه السلام. فاكتسبت بذلك حرمة خاصة، مستمدة من حرمة دماء جسده الطاهر؛ الذي رواها ومن كان معه من أهل بيته وأصحابه عليهم السلام، في سبيل أشرف قضية، وهي حفظ الدين الحنيف، وحفظ ذكر رسول الله محمد ﷺ. وقد تظافرت الروايات بخصوص هذا الموضوع[3].

---

(١)- سورة الأحزاب، آية ٥٣.

(٢)- محمد بن المشهدي المزار الكبير تحقيق جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٩هـ، ص٥٥٥.

(٣)- را: جعفر التستري، كتاب الخصائص الحسينية، للخطيب مركز البحوث العقائدية، حيث ذكر خصائص الإمام طبقاً للعناوين التالية، باب في صفاته وأخلاقه وعباداته العامة المطلقة، باب في خصائص صفاته وأخلاقه وعباداته يوم عاشوراء، باب في خصائصه من حيث الألطاف الإلهية به والاحترامات الربانية له، باب في بيان اللطف الرباني الخاص بالإمام الحسين عليه السلام، باب في خوصياته عليه السلام المتعلقة بالخشوع لتذكّره والرقة والبكاء عليه وإقامة مجالس المآتم والرثاء، باب في خصوصيات زيارته التي هي أعظم الوسائل الحسينية، باب في خصائصه المتعلقة بالقرآن المجيد والكلام العزيز، باب في خصوصياته المتعلقة ببيت الله الحرام، باب في خصائصه فيما يتعلق بأنبياء الله تعالى العظام، باب في خصوصياته المتعلقة بأفضل الأنبياء.

وفي رواية وردت عن الإمام الصادق عليه السلام تقول:«إن لموضع قبر الحسين حرمة معروفة، من عرفها واستجار بها أجير». فقال أحدهم: «فصف لي موضعها؟» فوصف له الموضع وحدده إلى أن قال له:«وموضع قبره من يوم دفن روضة من رياض الجنة، ومنه معراج يعرج فيه بأعمال زواره إلى السماء وما من ملك في السماء ولا في الأرض إلا وهم يسألون الله أن يأذن لهم في زيارة قبر الحسين عليه السلام. ففوج ينزل وفوج يعرج»[1].

وعن السجّاد عليه السلام يقول: إنه إذا زلزلت الأرض زلزالها وسيّرها، رفعت كربلاء كما هي بتربتها النورانية صافية، فجعلت في أفضل روضة من رياض الجنة[2].

معنى ذلك، أن من يدخل أرض كربلاء فكأنما يدخل أفضل روضة من رياض الجنة. ثم يكمل عليه السلام: وإنّها لتزهر بين رياض الجنة[3] كما يزهر الكوكب الدرّي بين الكواكب، يغشى نورها أبصار أهل الجنة وهي تنادي أنا أرض الله المقدّسة الطيّبة المباركة التي تضمّنت سيد الشهداء، وسيد شباب أهل الجنة[4].

اللهم بحق كربلاء، وبحق كل حبّة رمل فيها اختلطت بدم الحسين عليه السلام لتزهر نوراً يوم القيامة في الجنة، اجعل نور كربلاء في قلوبنا وأرواحنا. واجعلنا ممن يجارون[5] بأبي عبد الله يوم الوقوف بين يديك حين نُسأل عن إمامنا ومن نتّبع، وعن وليّنا ومن ننصر. واجعلنا ممَّن تنتصر به لدينك. إنك خير من يجيب الدعاء.

---

(١)- ابن قولوية كامل الزيارات، م.س، ص٤٥٧.

(٢). الشيخ المفيد المزار تحقيق السيد أبطحي، مدرسة الإمام المهدي، قم، ط١، ص٢٣.

(٣)- تنير.

(٤)- الشيخ المفيد المزار، م.ن، ص٢٣.

(٥)- جور من جار، ويقال: الذي استجارك تجيره أي تمنعه (را: العين، للفراهيدي، ج٦ص١٧٦).



II

إطلالة عامة على زيارة الناحية المقدّسة

تعريف زيارة الناحية المقدّسة

نسبتها:

أول زيارة تنسب إلى صاحب العصر والزمان ﷺ هي زيارة عاشوراء، التي لا يخفى على أحد مدى الأجر والثواب الذي تحمله فضلاً عن أبعادها ودلالاتها ومعانيها. أما الزيارة الثانية التي تنسب إليه ﷺ والتي نحن بصددها هي زيارة الناحية المقدّسة، كما هو مقطوع عند قسم كبير من علمائنا. وقد نُقلت عنه ﷺ عن طريق أحد نوّابه الأربعة، من غير تحديد. وأول من رواها هو الشيخ المفيد (رضوان الله تعالى عليه). وقد كان علم الهدى[1] على علاقة خاصّة مع هذه الزيارة، حيث إنه كان يقدّم قراءتها على قراءة أية زيارة أخرى. وهذا ما جعل الكثير من الشيعة يهتمون بها بالخصوص.

---

(١)- السيد المرتضى، تلميذ الشيخ المفيد.

إطلاقها:

زيارة الناحية المقدّسة من الزيارات المطلقة، التي يمكن قراءتها في أي ظرف ومناسبة. ورغم أنها ليست من الزيارات المخصوصة بوقت محدد، إلا أنها تعتبر من الأمور التي تم الحث على قراءتها في عاشوراء.

سبب التسمية:

قد يسأل البعض عن سبب تسميتها بزيارة الناحية المقدّسة. والمرويّ، أنه إذا وصلت إلى المكان؛ أي مكان الإمام الحسين عليه السلام فقل كذا وكذا. لذا اعتقد البعض أن الناحية تعني ناحية الإمام الحسين عليه السلام. لكن يبدو أن المقصود من الإشارة لها بزيارة الناحية هو ناحية المعصوم، وبالتحديد قائم آل محمد عجل الله فرجه؛ أي إنها صادرة من ناحية وجانب الحجة عجل الله فرجه.

أهمية الالتفات إلى المعاني والدلالات:

كل زيارة معتبرة أو معتمدة لدى الشيعة تحمل مجموعة من المضامين الخاصة. ونحن للأسف الشديد في ثقافتنا أحياناً نضيّع تلك الأبعاد والمعاني، كما نفعل بالدعاء، فإننا نقرأه لمجرّد التبرّك، غير ملتفتين إلى معانيه ودلالاته وأبعاده، ونمطه التربوي.

هذا وإن أي زيارة إنما تبدأ بركن أساسي حين تلاوتها وهو ذكر السلام، وأول ما تقول: السلام عليك. الهدف من ذلك هو بناء علاقة، ليست فقط حميمة، وإنما حيّة بينك وبين من تزور. عليك أن تشعر قلبك وأن تتوقع كأنّما هو، وهو بالفعل يردّ عليك السلام، ويرى المكان الذي أنت فيه، ومن خلاله تناديه: السلام عليك.

هذا البعد الذي فيه حيوية وحياة في النظرة للمعصوم، سنراه بشكل واضح وواسع في زيارة الناحية المقدّسة.

III

المخطط العام للزيارة

تقسّم الزيارة بشكل عام إلى مقاطع أساسية:

- المقطع الأول:

السلام، ويمكن إدراجه تحت مرحلتين:

١- السلام العام:

إذ تبدأ الزيارة فتقول: السلام على آدم صفوة الله من خليقته، السلام على شيث.. ففيها مجرّد إلقاء السلام. وهناك ملاحظة تستوقف القارىء والزائر؛ مع أنه يزور الإمام الحسين عليه السلام فإنه يبدأ بالسلام على الأنبياء عليهم السلام من آدم؛ أي من بداية الخليقة. ودون شك لهذا الأمر دلالة قوية، ينبغي البحث عنها.

لماذا نبدأ بالزيارة والسلام من آدم؟

ثم يورد الزائر السلام على آل محمد صلى الله عليه وآله، بعدما ذكر أهم الأنبياء

وختم ذكرهم بالسلام عليهم بخاتمهم، الذي هو رسول الله ﷺ. ليعود فيبدأ بإلقاء السلام على آل البيت عليهم السلام وبالتحديد على أصحاب الكساء الخمسة عليهم السلام، النبي ﷺ وأمير المؤمنين علي عليه السلام، السيدة الزهراء عليها السلام ثم يورد الإمام الحسن عليه السلام ويتوقف عند الإمام الحسين عليه السلام.

ويقدّم السلام لأبي عبد الله، لكنه لا يسلّم عليه كشخص، بل على خصائصه التي اختصه الله بها، على صفاته عليه السلام وعلى الابتلاءات التي تعرّض لها، كما تعرّض لها من كان معه في عاشوراء. يقدّم السلام إلى هذه الحركة الثورية التي أرادت وجه الله والتي تمثلت بملحمة عاشوراء الإمام الحسين عليه السلام. ثم يترقى السلام من جديد فيبدأ بالسلام الخاص.

٢- السلام الخاص:

في البداية ورد: السلام عليك يا آدم، السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أمير المؤمنين. أمّا هنا، فالسلام يختلف عن سابقه لأنه سلام بدرجة أعلى. السلام عليك سلام العارف بحرمتك.

نوعية السلام بدأت تأخذ دورها ومضمونها وبالتالي علينا أن نسأل: ما هي نوعية هذا السلام الذي قد ترقّى به الإمام ليعلّمنا على ضوئه كيف ينبغي أن نكون، حينما نترقى بالسلام على أبي عبد الله الحسين عليه السلام وعلى من يمثّل؟

ورد في الزيارة الجامعة: إن مضمون السلام هو معرفة حق الأئمة عليهم السلام والسلام عليكم سلام العارف بحقكم، أما في زيارة

الناحية المقدّسة فالمضمون هو سلام العارف بحرمتهم عليهم السلام وحرمة الإمام الحسين عليه السلام. والسبب أن الذي جرى في عاشوراء فيه هتك لحرمة الإمام الحسين عليه السلام، التي هي هتك لحرمة الرسول صلى الله عليه وآله وليس فقط الإمام الحسين عليه السلام ولا مبالغة في القول: إن فيه هتكاً لحرمة الله المقدّسة التي أودعها سر أبي عبد الله عليه السلام.

هناك إذاً، ترقي في السلام، يقتضي فيما بعد أن يقول له: إنه إذا لم أستطع نصرتك بيدي، والدفاع عنك بنفسي، لأندبنك صباحاً ومساءً. لأنه وصل إلى درجة أن يعيش حقيقة حرمة ما قد هتك بهتك حرمة الحسين عليه السلام. وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

- **المقطع الثاني:**

وهو يعبّر عن المرحلة الثالثة وهي شهادة الزائر.

بعد السلام أصبحت كزائر تعي على أي أساس تسلّم. فتبدأ بالإعلان عمّا تؤمن به. وحينما يقول أي واحد منا أمام الإمام المعصوم اقتداءً بصاحب العصر والزمان وقبل هذا وبعده إعلاناً أمام الله سبحانه كلمة أشهد ما يعني أن الرقابة الإلهية الآن، مسلّطة كل الضوء على ما تعلن من موقف عندما تقول: أشهد. وهو أمر ستسأل عنه حين الموت، وعند القبر، وحين الخروج من القبر عند الوقوف بين يدي الله عز وجل.

أنت تقول: أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة.

هل كان فعلاً هذا هو موقفك العقائدي والإيماني والسلوكي، الذي ستذكره في جملة ما ورد من الزيارة، وأنت تشهد الله وملائكته وتشهد

الأنبياء الذين ذكرتهم، منذ آدم إلى نبينا محمد ﷺ ومن محمد ﷺ إلى قائم آل محمد ﷺ تجاه الحسين عليه السلام. أنت الآن في مورد المسؤولية، عما تعتقد، وما تحمله في قلبك من عبارات ومفردات ومعاني تطلقها في أثناء الحديث حول فقرات تتعلق بهذه الزيارة.

- المقطع الأخير:

وهو الذي يُعبِّر عن المرحلة الرابعة من الزيارة، إذ فيه الدعاء ومناجاة الباري سبحانه.

ففي آخر مقاطع الزيارة يناجي الزائر الباري عز وجل. فيبدأ دعاءه: «اللهم فبحرمة هذا المكان». لنتوقف قليلاً عند كلمة «اللهم».

يشدّد الإمام الخميني قدس سره كثيراً على أنّ الإنسان عندما يدعو بدعاء، ويتوجّه إلى الله تعالى ليناجيه به، يجب أن يكون بمستوى المناجاة. مثلاً عندما يناجيه يا رحمن ويطلب الرحمة، يجب أن يكون متأدّباً في طلب الرحمة. أو عندما يقول يا رازق، يجب أن يكون متأدّباً في طلب الرزق من الله سبحانه. كما يعتبر (رضوان الله تعالى عليه) أن قول: «اللهم»، هو ذكر اسم الله الجامع لجميع أسمائه تعالى من: يا رحمن يا رحيم يا محيي... والذي يحق له أن ينادي الله باسمه الجامع ، وأن يدعوه به، هو الإنسان الذي جمع الكمالات، وهو الذي يسمى بالإنسان الكامل، أو المعصوم، أو محمد وآل محمد ﷺ.

ونحن اقتداءاً واستشفاعاً بولاية محمد وآل محمد ﷺ ننسب أنفسنا إلى زمرتهم، راجين أن نكون معهم، وفي موقع قريب منهم، ليحق لنا فيه أن ندعو الله باسمه فنقول: «اللهم» بحرمة كذا وكذا، أي ندعوه تعالى بما هو جامع لكل المفردات المتعلقة باسم الله سبحانه.

IV

بعض الانطباعات التي ينبغي تكوينها تجاه نفس زيارة الناحية

❖ ثقـــافـــة الارتبـــاط

نحن في عصر يطلق عليه باللسان الشرعي والديني: عصر الغيبة، غيبة الإمام ﷺ. إذاً، أنا عملياً وإيمانياً، ارتباطي بحسب التسلسل الزماني للأئمة الأطهار عليهم السلام هو ارتباط مباشر بالإمام الحجة ﷺ. فمن كان في عصر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يكون ارتباطه المباشر بولاية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. ومن كان في عصر الإمام الجواد عليه السلام فإن ارتباطه المباشر هو بالإمام الجواد عليه السلام. ومن كان في عصر الغيبة، ارتباطه الفعلي المباشر من حيث ولاية الأئمة عليهم السلام بالإمام الحجة ﷺ. مع عدم الانقطاع عن الأئمة الباقين عليهم السلام، لأن سلسلة الولاية تنطلق من مبدأ الولاية، بحسب تعبير الرواية: أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد، كلنا محمد ﷺ [1] والولاية الفعلية تسمى بحقيقة محمد ﷺ، وهي تتمثل بالأئمة الأطهار عليهم السلام.

(١)-النعماني، محمد بن إبراهيم كتاب الغيبة تحقيق علي أكبر الغفاري، مكتبة الصدوق، طهران، ص٨٦.

عند فهمي لهذه الحقيقة واعتقادي بأن هذه الزيارة مروية عن وليّي المباشر: الإمام الحجة ﷺ، أكون معنياً بالأبعاد والدلالات التربوية التي تحكيها بشكل مباشر. بمعنى أني لا أستطيع الهروب من بعض المواصفات التي تذكر عن النبي ﷺ أو الإمام علي عليه السلام أو الإمام الحسن عليه السلام عبر التذرع أنها كانت مناسبة لوقتهم وظرفهم. ذلك لأن هذا الزمان هو زمانه ووقته ﷺ، وبالتالي ارتباطي بهذه الزيارة هو ارتباط من ينبغي أن يلتزم بدلالاتها.

وبما أنها تتعلق بثورة الإمام الحسين عليه السلام وشهادته ومبادئه، إذاً، أنا تربوياً وسلوكياً منجذب لتعلم ما يمكن لي تعلمه من العملية، وهو الارتباط بهذه الثورة وهذه الملحمة. والذي هو موجود في دلالات ما هو مروي ووارد عن المعنيّ عني مباشرة،الإمام الحجة ﷺ.

من حيث الجانب العملي:

قد تتواجد على سبيل المثال، جماعة من المسلمين شيعة كانوا أو غير شيعة بمختلف قناعاتهم واتجاهاتهم، يرتبطون بالإمام الحسين عليه السلام دون الالتفات إلى حركة النبوة أو الرسالة التي اكتملت على يدي الرسول محمد ﷺ. تأتي الزيارة لتوضح لنا أن من يريد أن يدخل باب أبي عبد الله وحرمته وقبته التي يستجاب الدعاء فيها، عليه المرور بطريق الأنبياء كلهم، بدءاً من آدم عليه السلام حتى خاتمهم رسول الله ﷺ [١]. هذه من الدلالات التي تعلّمنا إياها طريقة وطبيعة التعاطي مع الإمام الحسين عليه السلام.

بناءً عليه، فكرنا الشيعي قد أثري بخصائص تميّزنا عن باقي المذاهب، نتيجة تلك العلاقة، أبرزها:

---

(١)- وتوضيح ذلك سيرد لاحقاً.

أ- ربط فريد في الأزمنة:

عند تلاوة الزيارة، نجدها تتحدث عملياً عن جانب له علاقة بالماضي يبدأ من آدم عليه السلام إلى نبيّنا محمد ﷺ إلى قائم آل محمد عجل الله فرجه. وساحة الحديث التي تتناولها الزيارة هي ساحة كربلاء، ولها أيضاً علاقة بالماضي. بينما الارتباط النهائي بالنتائج المتعلّقة بالإمام الحجة عجل الله فرجه له علاقة بالمستقبل، بالنهايات، باكتمال حركة الدين. وتلاوتها تكون في لحظة الزمن الحاضر.

قد نجد بعض الاتجاهات الدينية أو المذهبية، التي لا يكون لديها تاريخ، عندما تبدأ بالبحث عن المستقبل، تقع في مشكلة صياغة مستقبلها لتكوِّن له صورة، بطريقة تتلاءم مع متطلباتها وأهوائها، فترسم له أفقاً خاصّاً فيه.

جماعة أخرى تذهب باتجاه الماضي والتاريخ، وليس لديها رؤية حول المستقبل، لا بدّ أن تقع في مذهب التسلّف أي العودة إلى الماضي حتى ولو لم تكن سلفية. ترجع إلى الماضي فقط، والمستقبل لا يعني لها شيئاً. وبالتالي يصبح الحاضر مجرّد تكرار للماضي لا أكثر ولا أقلّ.

ميزة الشيعة التي نفتخر بها ونعتز، ونحمده تعالى ونشكره عليها، أن جعل لدينا ماضٍ أوله محمد، قد أحياه أبو عبد الله الحسين عليه السلام. وجعل لنا مستقبلاً يتمثل باكتمال الإنسانية والدين، عند ظهور قائم آل محمد عجل الله فرجه. وأمثال هذه الزيارات تربط عندنا كأمّة الماضي بالحاضر بالمستقبل. فتصبح أناساً لديهم تاريخ، ويريدون صنع مستقبلهم، دون أية قطيعة عن هويتهم، وتاريخهم، وثوابتهم، والتي أعظمها وأهمّها ثورة الإمام الحسين عليه السلام. هذا في تكويننا الثقافي الذي تعلّمنا إياه هذه الزيارة كما غيرها من الزيارات والأدعية الأخرى.

ب- ثقافة الانتصار والشهادة:

كثيراً ما نسمع أننا في مرحلة من المراحل كنا نتكلّم عن الشهادة والاستشهاد. ثم بدأنا في الحديث عن الإمام الخميني وثورته قدس سره. ثم تتالت الأمور إلى مرحلة الانتصار وتحقيقه، إلى درجة أنّ البعض اعتبر أن ثقافة الانتصار وتحقيقه لا علاقة لها بالشهادة. علماً بأنه لو أردنا العمل على الرموز، نجد أن حادثة كربلاء، وواقعة الطف تمثل عندنا كل معنى ورمزية الاستشهاد والشهادة، والمستقبل الآتي مع قائم آل محمد عجل الله فرجه هو الذي يمثل دلالات النصر والانتصار.

يوجد نص بين أيدينا يتناول بلسان صاحب الانتصار الأعظم ثقافة تقول لي: إنه حين تصل إلى تحقيق النصر أو الانتصار، يشترط أن تعرف بأنه ليست الشهادة في البدايات فقط، بل يشترط بشكل موضوعي أن يكون وضعك النفسي متحفّزاً وباحثاً دوماً عن درب الشهادة، درب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، الذي أراد الله سبحانه أن يحقق فيه لك حالة إرث الشهادة المأخوذة منه عليه السلام لتكون ممن يرثه بها.

وإن شاء الله تحقيق صورة أن ترث الأرض ومن عليها بالنصر، فأنت سيتمثل النصر لديك تحت راية قائم آل محمد عجل الله فرجه.

لكن، هذا الدرب الذي تنتمي إليه وترسمه لا تستطيع رسمه بنفسية من يريد النصر للنصر، بل من يريد أن ينصر الحق. وينبغي أن تكون مستعداً ببنائك النفسي، لبذل كل ما تملك على غرار ثورة الإمام الحسين عليه السلام، حتى تصل إلى تحقيق الأهداف التي تريد.

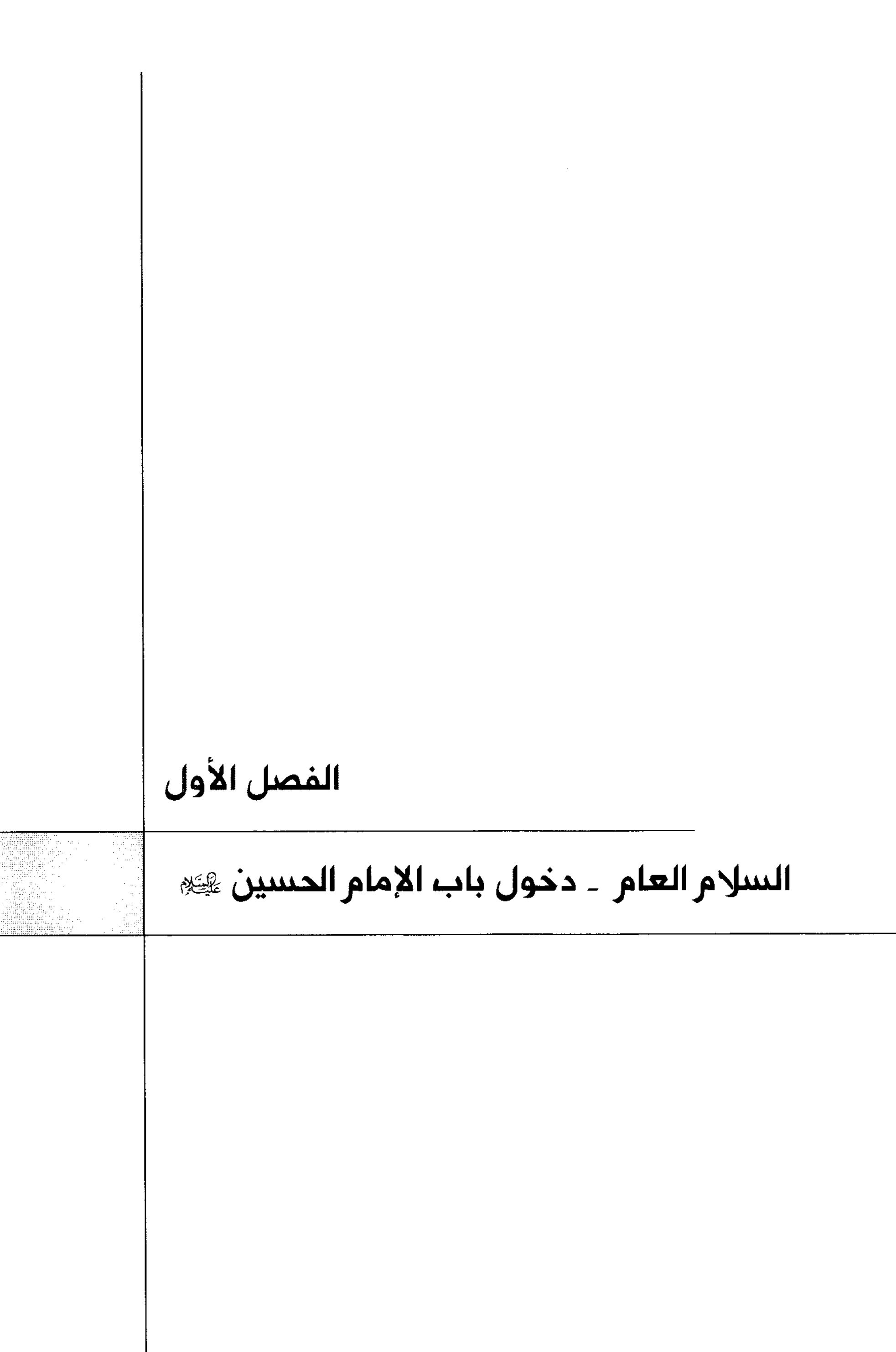
إذاً، هذه الزيارة ترسم مساراً من الثقافة المتعلقة بالشهادة والانتصار بشكل واضح، ونحن ملزمون بهذا المسار لأننا ملزمون بإمامة

وقيادة صاحب العصر والزمان ﴿عجل الله فرجه﴾.

في الختام، أرجو الله تعالى أن نقرأ كلمات هذه الزيارة ونتأمّل فيها بعقول تريد أن تعتبر بكل فكرة وكل فقرة ترد فيها، كأمثالها من الزيارات.

وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا بمثل هذه النصوص الواردة عن أهل بيت العصمة ﴿عليهم السلام﴾ ممن يجعلون من نفوسهم وقلوبهم وأرواحهم ساحة يحضر فيها كل معنى من معاني الرحمة الإلهية، والبركة والعطاء الإلهي، المتمثّل أساساً وبالأصل بما جعله الله في أسرار شهادة أبي عبد الله ﴿عليه السلام﴾، وبما جعله الله في قرار مكين لسر قائم آل محمد ﴿عجل الله فرجه﴾. حتى لا يخرجنا من هذه الدنيا أبداً إلا وحب محمد وآله يملأ منّا القلوب والأرواح، إلا ونحن على ثبات محمد وآل محمد في صراط محمد وآل محمد. إن ربي سميع الدعوات.





الفصل الأول

السلام العام ـ دخول باب الإمام الحسين عليه السلام

السلام العام
دخول باب الإمام الحسين عليه السلام

طريقة تقديم السلام إلى أبي عبد الله عليه السلام، في زيارة الناحية يوحي بأن هناك علاقة وطيدة بينها وبين زيارة عاشوراء وزيارة وارث. لأن هذه الزيارة، الواردة عن إمامنا صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه تضعنا أمام الحالة النفسية التي ينبغي أن نكون عليها أثناء التوجه إلى مقام الإمام الحسين عليه السلام، في جملة من الأقوال التي تستحضر كل عناصر التذكير بالله سبحانه وتعالى، وبرسالاته في أرضه. وحينها، يمكن دخول باب أبي عبد الله عليه السلام.

❖ سلام يبدأ مع التاريخ

الزيارة في مطلعها تبدأ بالقول: «السلام على آدم صفوة الله من خليقته، السلام على شيث ولي الله وخيرته» تسلّم على بقية الأنبياء، وتختم بالسلام على محمد حبيب الله وصفوته. بين هذا المدخل في الزيارة وزيارة وارث شيء مشترك، هو أنه أثناء إلقاء التحية والسلام،

يوجد ذكر للأنبياء والرسل. لكن ما يميّز زيارة وارث أنها تورد الأسماء الخاصة بآدم عليه السلام وأولي العزم من الرسل: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، ومحمد صلى الله عليه وآله بينما في زيارة الناحية كان السلام أكثر تفصيلاً على الأنبياء. الفارق الثاني بينهما، أنّ مطلع زيارة وارث، يتوجه السلام فيه إلى الإمام الحسين عليه السلام مباشرة، الذي قد ورث آدم، ونوح، وإبراهيم... إلخ. والملفت أيضاً، أنها تتوقف عند السيدة الزهراء بعد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم تدخل منحىً آخر مختلف. بينما، في زيارة الناحية، السلام يتحرك كأنما هناك إنسان بدأ مع التاريخ، وحينما نتحدث عن التاريخ، فإننا نتحدث عن الإنسان على هذه الأرض، لأن تدوين التاريخ يبتدئ مع بداية الإنسان على وجه هذه البسيطة. فتبدأ الزيارة بالسلام مع بداية الإنسان الأول من التاريخ، إذ جعل الله للأرض خليفة، هو آدم، فتسمي آدم وتدخل بوابة التاريخ من خلاله باعتباره صفوة الله من خلقه سواء كان هذا الخلق جنّاً أو غيره من سكان الأرض فقد اصطفاه ليجعله خليفة . ثم يكمل السلام على الأنبياء، نبي بعد نبي، تذكرهم الزيارة مع بعض المواصفات الخاصة بهم. وتتقدم خطوة بعد أخرى باتجاه الإمام الحسين عليه السلام، ذاكرة الإمام علي عليه السلام وبعده الإمام الحسن عليه السلام ثم الحسين عليه السلام لتتوقف عنده، فتذكر مواصفاته وخصائصه وما حصل معه في الطف، في ابتلاءاته، وفي قضيته الكبرى.

لقد دخلت الزيارة بوابة الإمام الحسين عليه السلام من خلال ذكر الأنبياء عليهم السلام لتشير لنا، أن الذي يريد أن يتعرّف إلى حرمة الإمام الحسين عليه السلام ومقامه، فلينظر إلى حرمة الأنبياء عليهم السلام ومقامهم، فحرمته عليه السلام هي حرمة آدم عليه السلام صفوة الله، حرمة شيث ولي الله، هي حرمة نوح الذي استجاب الله له دعوته، وهي حرمة إبراهيم...

وهي حرمة محمد بن عبد الله عليه السلام.

إذاً، الدخول إليه يستحضر كل هذا الزخم الإلهي، في علاقة الله مع الإنسان.

❖السلام على مظاهر الله في خلقه وحقائق أمره

الله سبحانه وتعالى هو مصدر كل شيء، والكثير من الأسماء والصفات الإلهية الواردة في القرآن الكريم، والروايات الشريفة، نتعرف إليها من خلال خلق الله وآياته. فالحياة والرزق مصدره الله الحي والرازق، بل إن كل شيء يشير إلى صفة من صفاته تعالى، وإلى إرادة منه عز وجل.

الزيارة المقدّسة لم تتعرض لذكر أي نبي من الأنبياء بشكل مفصول عن خاصية موجودة لديه أو صفة تتعلق به. فاصطفاء الله من خليقته تمثّل في آدم، ومظهر الولاية يُتلمّس مع شيث، ومظهر الحجة الإلهية على الخلق يتمثل في إدريس بما هو صاحب عقل وعلم ومعرفة. كما أن نوح يمثل مظهر الاستجابة للدعاء، هذا الدعاء الذي غيّر وجه الحياة على الأرض، وجعلها مخصوصة بمن ركب السفينة، للبدء بمرحلة جديدة من تاريخ الإنسانية ملؤها الطاعة لله تعالى. والكرامة الإلهية تتجلى في صالح. أما نبي الله إبراهيم الذي اختصه الله بالخليلية، فيظهر فيه أمران:

الأول: يتعلق بالفداء والطاعة والتسليم، ورمز الرضا المطلق المتمثل بالذبح لإسماعيل. حيث كان هذا الرمز متجلياً في الأب والابن معاً، ثم عوّضه الله بقربان.

والثاني: يتعلّق بإسحاق الذي يمثل الجمع للذرية التي منها ستكون سلسلة أنبياء بني إسرائيل، الذين أوردهم القرآن الكريم. فالزائر

الموالي ينطلق من البعد الرسالي في السلام على الأنبياء بما هم مظاهر حقائق الله وآياته في خلقه. مكتشفاً حركة الوحي في طبيعة العلاقة مع هؤلاء الأنبياء.سنتوقف قليلاً عند طبيعة الوحي والعلاقة معه، ثم نرى ارتباطه بأبي عبد الله عليه السلام.

طبيعة الوحي والعلاقة معه

الزيارة المقدّسة، أنهت السلام على الأنبياء بالسلام على نبينا محمد ﷺ باعتباره خاتمهم، فأعلنت كما نعتقد على المستوى الإسلامي أنّ الوحي الإلهي قد انقطع. لكن أيّ وحي؟

كلمة وحي[1] في القرآن الكريم نجدها بمعنى هداية الخلائق إلى

١- ورد في معاجم اللغة، كتاب العين، الخليل الفراهيدي، ج ٣، ص٣٢٠: يقال: وحي يحي وحيا، أي: كتب يكتب كتبا. قال المجاج: لقدر كان وحاه الواحي وقال: في سورة من ربنا موحيه وأوحى الله إليه، أي: بعثه. وأوحى إليه: ألهمه. وقوله عز وجل ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾، أي : ألهمها. وأوحى لها معناه : وأوحى إليها في معنى الأمر . قال الله عز وجل﴿بأن ربك أوحى لها﴾. قال العجاج: وحى لها القرار فاستقرت أراد : أوحى إليها، إلا أن لغته: وحى، فإذا لم يذكر (لها) قال: أوحى. وزكريا أوحى إلى قومه، أي : أشار إليهم. والإيحاء: الإشارة. وورد في لسان العرب، ابن منظور ج ١٥، ص ٣٧٩ : الوحي : المكتوب والكتاب أيضا. وأوحى إليه : بعثه . وأوحى إليه : ألهمه . وفي التنزيل العزيز : وأوحى ربك إلى النحل ، وفيه : بأن ربك أوحى لها ، أي إليها ، فمعنى هذا أمرها، ووحى في هذا المعنى، قال العجاج: وحى لها القرار فاستقرت، وشدها بالراسيات الثبت وقيل: أراد أوحى إلا أن من لغة هذا الراجز إسقاط الهمزة مع الحرف ، ويروى أوحى ، قال ابن بري: ووحى في البيت بمعنى كتب. ووحى إليه وأوحى : كلمه بكلام يخفيه من غيره . ووحى إليه وأوحى : أومأ . وفي التنزيل العزيز: فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا، وقال: فأوحت إلينا والأنامل رسلها وقال الفراء في قوله، فأوحى إليهم: أي أشار إليهم، قال: والعرب تقول أوحى ووحى وأومى وومى بمعنى واحد، ووحى يحي وومى يمي. الكسائي: وحيت إليه بالكلام أحي به وأوحيته إليه، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه من غيره، وقول أبي ذؤيب : فقال لها ، وقد أوحت إليه : ألا لله أمك ما تعيف أوحت إليه أي كلمته ، وليست العقاة متكلمة ، إنما هو على قوله : قد قالت الأنساع للبطن الحقي وهو باب واسع ، وأوحى الله إلى أنبيائه . ابن الأعرابي : أوحى الرجل إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة ، وأوحى أيضا إذا كلم عبده بلا رسول ، وأوحى الإنسان إذا صار ملكا بعد فقر، وأوحى الإنسان ووحى وأحى إذا ظلم في سلطانه ، واستوحيته إذا استفهمته. والوحي: ما يوحيه الله إلى أنبيائه. ابن الأنباري في قولهم: أنا مؤمن بوحي الله، قال: سمي وحيا لأن الملك أسره على الخلق وخص به النبي، صلى الله عليه وسلم ، المبعوث إليه ، قال الله عز وجل : يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، معناه يسر بعضهم إلى بعض، فهذا أصل الحرف ثم قصر الوحي للإله، ويكون للأمر، ويكون للإشارة، قال علقمة: يوحي إليها بأنقاض ونقنقة وقال الزجاج في قوله تعالى: واذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي

طبيعة عيشها، وإحياء وجودها، ومجتمعاتها وأممها. كما في الآية الكريمة: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾[1]. كما أنها ترد بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يتدخّل بلطفٍ منه في قلب إنسان ما ونفسه، فيربط على القلب، ويسدّد التصرّف ويهدي. إذاً، مبدأ الهداية العامّة للمخلوقات هو تعبير عن وحي الله ولطفه ورحمته الواسعة في هذه المخلوقات.

الوحي بهذا المعنى لم ينقطع، ولا يمكن له أن ينقطع. وإلا كنّا أصحاب اعتقاد عبّر عنه القرآن الكريم بآيات واضحات بيّنات أن الذين يقولون به قد لُعنوا ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[2]. فالباري

وبرسولي، قال بعضهم: ألهمتهم كما قال عز وجل: وأوحى ربك إلى النحل، وقال بعضهم: أوحيت إلى الحواريين أمرتهم، ومثله: وحى لها القرار فاستقرت أي أمرها، وقال بعضهم في قوله: وإذ أوحيت إلى الحواريين، أتيتهم في الوحي إليك بالبراهين والآيات التي استدلوا بها على الإيمان فآمنوا بي وبك. قال الأزهري: وقال الله عز وجل: وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، قال: الوحي ههنا إلقاء الله في قلبها، قال: وما بعد هذا يدل ، والله أعلم ، على أنه وحي من الله على جهة الإعلام للضمان لها: إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، وقيل: إن معنى الوحي ههنا الإلهام، قال: وجائز أن يلقي الله في قلبها أنه مردود إليها وأنه يكون مرسلا ، ولكن الإعلام أبين في معنى الوحي ههنا . قال أبو إسحق : وأصل الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء، ولذلك صار الإلهام يسمى وحيا، قال الأزهري : وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحيا والكتابة تسمى وحيا. وقال الله عز وجل: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب، معناه إلا أن يوحي إليه وحيا فيعلمه بما يعلم البشر أنه أعلمه، إما إلهاما أو رؤيا، وإما أن ينزل عليه كتابا كما أنزل على موسى ، أو قرآنا يتلى عليه كما أنزله على سيدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكل هذا إعلام وإن اختلفت أسباب الإعلام فيها. وروى الأزهري عن أبي زيد في قوله عز وجل: قل أوحي إلي ، من أوحيت، قال : وناس من العرب يقولون وحيت إليه ووحيت له وأوحيت إليه وله، قال: وقرأ جؤية الأسدي قل أحي إلي من وحيت ، همز الواو. ووحيت لك بخبر كذا أي أشرت وصوت به رويدا. قال أبو الهيثم : يقال وحيت إلى فلان أحي إليه وحيا، وأوحيت إليه أوحي إيحاء إذا أشرت إليه وأومأت، قال: وأما اللغة الفاشية في القرآن فبالألف، وأما في غير القرآن العظيم فوحيت إلى فلان مشهورة، وأنشد العجاج: وحى لها القرار فاستقرت أي وحى الله تعالى للأرض بأن تقر قرارا ولا تميد بأهلها أي أشار إليها بذلك، قال: ويكون وحى لها القرار أي كتب لها القرار. يقال: وحيت الكتاب أحيه وحيا أي كتبته فهو موحى. قال رؤبة: إنجيل توراة وحى منمنمه أي كتبه كاتبه.

١- سورة النحل، آية ٦٨ .

٢- سورة المائدة، آية ٦٤ .

سبحانه يتدخّل بكلتي يديه، كتعبير عن القدرة الإلهية التامّة.

فالذي انقطع هو الوحي بالمعنى التشريعي، حيث لم يعد هناك رسالات أو تشريعات جديدة، لأنه مع النبي محمد ﷺ قد اكتملت رسالة الله العظمى والشاملة إلى الإنسان ومجتمعاته.

الإمام الحسين عليه السلام والوحي الإلهي

المسار في الزيارة المقدّسة يتناول السلام على الإمام الحسين عليه السلام، بما هو حامل لأمانة وحي الله في خلقه. وزيارة وارث الشريفة قد أشارت بوضوح إلى أن الإمام الحسين عليه السلام قد ورث الأنبياء وأولي العزم من الرسل. وهو بذلك وارث وحي الله في الحياة، وفي الوجود، وبالتالي في هدى الناس وأمورهم. إنه وارث هذه الميزة وهذا اللطف الإلهي، بمعنى أن مشيئة الله سبحانه، وإرادته في الخلق، قد تمثلت في شخص الإمام الحسين عليه السلام بحسب الزيارة المقدّسة التي بين أيدينا.

طبعاً ليس وحده، بل هي حقيقة مكتملة، تبدأ منذ آدم لتكتمل مع نبيّنا محمد ﷺ، وتستمر حتى قائم آل محمد عجل الله فرجه. وبحسب ما يُفهم من الكثير من الروايات وكلّ الزيارات، أنّ الحافظ لها في استمرارها بالتحديد هو الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

يجب استحضار هذا المعنى، بشكل واضح وبيّن، في عقولنا ونفوسنا، في أرواحنا وسلوكياتنا، حتى نتربّى بهذه الزيارة المقدّسة.

من لوازم هذا الأمر، أنّ التعدّي على هذا الحق الخاص بأبي عبد الله عليه السلام، أو أي تعدٍ على أيّ حق خاص بالمعصومين، من رسول الله محمد ﷺ إلى القائم عجل الله فرجه يحمل بحقيقته تعدٍ واضح على الوحي وأمانته. وهو بهذا المعنى إعلان حربٍ وتعدٍ على الله وحرمته ومشيئته سبحانه.

لذا فالمسألة أي ما حصل في كربلاء لم تكن بأنّ يزيد ومجموعة من الأشخاص قد أخطأوا مع الإمام الحسين عليه السلام وانتهى الأمر! بل إن المسألة أعمق من ذلك بكثير. إنها تتعدى حدود الشخص بجسمه، لتطال أصل هويته في تمثيله، واستخلافه لسرّ وحي ربه سبحانه وتعالى، الذي بدأ مع آدم وحفظ مع الإمام الحسين وبفضل دمائه الزكية بقي مستمراً.

❖ السلام على كمال النبوة وتمام النعمة

الخصائص والمواصفات الإلهية، المذكورة آنفاً، الموجودة لدى الأنبياء تختتم بعبارة: **«السلام على محمد حبيب الله وصفوته»**.

نلاحظ من خلال كلمة صفوته أن هناك عودة للاصطفاء الأول متمايزاً عنه. كأنما عندنا آدمين:

١- آدم الأول[1]، الذي هو صفوة الله في خلقه.

٢- آدم الثاني، صفوة الله الذي يمثّل كل الحقائق الإلهية في خلقه سبحانه بما فيها حقيقة آدم الأول، ونوح، وإبراهيم، وزكريا وكل الأنبياء عليهم السلام. لأن الكمال والتمام لمظاهر الحقيقة الإلهية إنما كانت لحبيب الله وصفوته محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، ومنه إلى علي ابن أبي طالب عليه السلام.

وفي زيارة وارث، يأتي ذِكْر أمير المؤمنين بأنه وصي الله، بما فيه من تأسيس لعهد الوصاية المتمثل بولاية الإمامة المحمدية. أي أنه مع علي عليه السلام وذريته ندخل مرحلة جديدة، عنوانها: ولاية الإمامة المحمدية التي تبدأ مع أمير المؤمنين عليه السلام، ولا تختتم إلا بقائم آل محمد عجل الله فرجه.

١- آدم الأول: أبو البشر، زوج حواء.

وزيارة الناحية المقدّسة تذكر السلام على أمير المؤمنين علي عليه السلام المخصوص بأخوّة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، وعلى فاطمة الزهراء عليها السلام التي تمثل البنوّة لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، كما تذكر الإمام الحسن عليه السلام وصي أبيه وخليفته[1].

وهذا الشأن التربوي الذي يعلّمنا إياه قائم آل محمد عجل الله فرجه يشير إلى أنه كما نسلّم على إبراهيم عليه السلام بما هو خليل الله، وعلى زكريا بما هو مستجاب الدعوة، وعلى توبة من تاب عليهم الله، وعلى فداء من افتدوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى القدرة المتمثلة بكليم الله موسى عليه السلام ، وعلى روح الله المتمثلة بعيسى بن مريم عليه السلام، كذلك نسلّم على أصحاب الكساء فرداً فرداً، لاستحضار ما يمثلون من حقائق الله التامة، لأن دخول بوابة الإمام الحسين عليه السلام لا يمكن ولوجها إلا بعد استحضار العلاقة مع الله من خلال معرفة مظاهره في خلقه والتي من أتمّها أصحاب الكساء الخمسة، الذين من أجلهم خلق الله عز وجل السماوات المبنية والأراضي المدحية[2]. ثم بعدها يمكن لنا السلام على الإمام الحسين عليه السلام لكن نسلّم عليه من خلال خصائصه التي تفرّد بها في واقعة الطف.

❖ السلام على خصائص الإمام الحسين عليه السلام وتضحياته

«السلام على الحسين الذي سمحت نفسه بمهجته، السلام على من أطاع الله في سرّه وعلانيته، السلام على من جعل الله الشفاء في تربته، السلام على من الإجابة تحت قبته، السلام على من الأئمة من ذريته».

---

١ - ذكر الإمام الحسن عليه السلام في هذه الزيارة المقدسة يمكن اعتباره ميزة إضافية لها، نظراً لندرة ذكره في الزيارات عليه السلام.

٢- الدحو بمعنى البسط (را، الطريحي، مجمع البحرين، ج٢ص١٥).

هـذا المقطـع أورد جملـة مـن خصائصـه الشريفـة:

١) تقديم المهجة في سبيـل اللـه:

كما أننا نستحضر مع السلام على الأنبياء عليهم السلام، تجربة كل من باع نفسه ودنياه بالكامل من أجل ربه سبحانه، كذلك نستحضر الرمز الذي يشير إليه الإمام الحسين عليه السلام عند مجرّد ذكر اسمه الشريف، فيتجه الذهن مباشرة باتجاه الفداء والتضحية والبذل والعطاء.

٢) طاعـة اللـه علـى كـل حـال:

وهنا يوجد تأكيد على الطاعة في السر والعلانية. ذلك أن الثقافة المبنية على أساس النظرة إلى الحياة العامة بشكل سلبي، لا تمثل بُعد الإسلام في التربية، بل تجب الطاعة وأنت تعيش حالتك الفردية بالصدقة وبالكلام الطيب والسليم... كما يجب لك أن تجعل ظاهر حياتك على ضوء الطاعة والإيمان، فالإمام الحسين عليه السلام كان المتهجّد[1]، والمصلّي، والقائم العظيم في إحياء الليالي طاعة لله، وحين وصل الأمر إلى ضرورة إعلان الطاعة المستمرة في ظاهر الحياة، قدّم كل ما يملك في سبيل جعلها كما يريد رب الحياة ورب الموت سبحانه.

إذاً، تحويل السر والعلانية معاً إلى ما فيه تقرب إلى الله عز وجل عبر الطاعة المطلقة، هو أمر مطلوب.

٣) جعـل الشفـاء في تربتـه:

صحيح أنّ بعضنا يتعامل مع تربته الشريفة بطريقة إيجابية، لكن مع الأسف الشديد، في كثير من أوساطنا هناك من يتعامل معها وكأنها

١- ورد في مجمع البحرين، الشيخ الطريحي، ج ٤، ص ٤٠٥ : التهجد من هجد وقيل معناه أي تيقظ بالقرآن. ويريد التعبد لربه في جوف الليل يتيقظ ليصلي، عبرّ عن صلاة الليل بالتهجد . وعن المبرد أنه قال : التهجد عند أهل اللغة السهر ، ويقال التهجد تكلف السهر للعبادات.

شيء له علاقة بالسحر والشعوذة. مع أن المرويات واضحة، بأن تربته عليه السلام تستعمل - فيما تستعمل فيه للتداوي لأن فيها:

أ) شفاء للروح، إذ بحملك السبّحة المصنوعة من تربته المقدّسة في يدك مثلاً، وتمتمتك بذكرٍ يقرّبك إلى الله عز وجل، فيه مقبولية مؤكدّة. ما يساعد على صفاء النفس واطمئنان القلب بالذكر. بل وبعض الروايات تشير إلى معنى أعمق من ذلك، وهو أنه مجرّد حمل السبّحة بقصد الذكر - حتى مع عدم قوله- فإنها تسبّح عنك وتستغفر الله لك، وتصلي على حبيبك محمد صلى الله عليه وآله وسلم. هذا في الجانب المعنوي.

ب) في الجانب المادي، كذلك الروايات واضحة، أنّ هذه التربة فيها شفاء لأمراضك الجسدية، وبمقدار إيمانك ومعرفتك بحقها ومقامها، وحرمتها، بمقدار ما أنت مؤهل للاستشفاء.

٤) الإجابة تحت قبته:

في خبر عن أبي هاشم الجعفري قال: دخلت على أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام، وهو محموم عليل فقال لي: يا أبا هاشم ابعث رجلاً من موالينا إلى الحائر يدعو الله لي، فخرجت من عنده فاستقبلني علي بن بلال.. فأعلمته ما قال لي، وسألته أن يكون الرجل الذي يخرج، فقال: السمع والطاعة ولكنني أقول: إنه أفضل من الحائر إذ كان بمنزلة من في الحائر، ودعاؤه لنفسه أفضل من دعائي له بالحائر!

فأعلمته عليه السلام ما قال، فقال لي: قل له، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من البيت والحجر، وكان يطوف بالبيت ويستلم الحجر، وإن لله تعالى بقاعاً يحبُّ أن يُدعى فيها فيستجيب لمن دعاه، والحائر منها»[1].

١- كامل الزيارات، ص ٤٦٠.

٥) الأئمة عليهم السلام من ذريته:

وهي الخاصية الأخيرة في هذا المورد، وبها يكون الإمام الحسين عليه السلام قد جمع كل المميزات المتعلقة بخليلية إبراهيم عليه السلام وما تبعها، سواء في إسماعيل عليه السلام وموضوع الفداء، أو في إسحاق عليه السلام الذي جعل الله في ذريته النبوة. حيث جعل سبحانه في الإمام الحسين عليه السلام ذرية الإمامة والولاية المحمدية، التي بها يكون كمال الدين وتمام النعمة.

❖ الهدف من السلام على وقائع حصلت في كربلاء

«السلام على المرمّل بالدماء، السلام على المهتوك بالخباء، السلام على خامس أصحاب الكساء، السلام على غريب الغرباء. السلام على شهيد الشهداء، السلام على قتيل الأدعياء، السلام على ساكن كربلاء، السلام على من بكته السماء، السلام على من ذريته الأزكياء... السلام على الجيوب المضرّجات... السلام على الشفاه الذابلات... السلام على الدماء السائلات، السلام على الأعضاء المقطعات، السلام على الرؤوس المشالات... السلام على الأبدان السليبة... السلام على المجدّلين في الفلوات...».

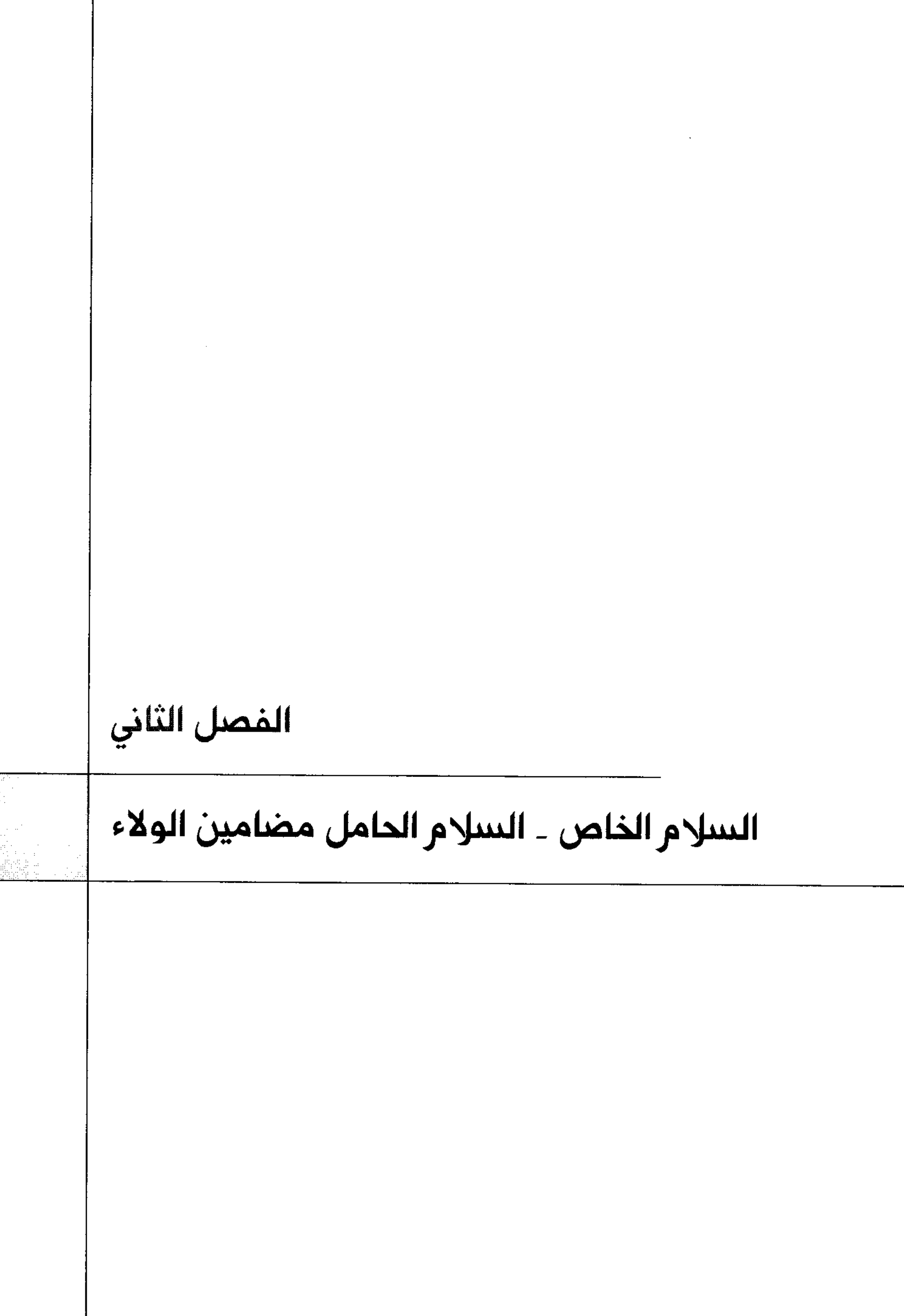
لقد سلّم على جرحه، وسلّم عليه باعتباره آخر نعمة من نعم أصحاب الكساء التي افتقدناها بسبب ما وقع به، ثم سلّم على المظلومية التي حلّت به، وعلى ذاك الخباء وتلك الحرمة التي هتكت فيه. سلّم عليه بالعامّ ليسلّم عليه بعد ذلك في طيات الزيارة على كل حركة من حركاته، وعلى كل سكنة من سكناته.

قد يعتبر البعض أن ما حصل في كربلاء هو أمر ماضٍ، فلماذا نتعامل معه وكأنه حصل البارحة أو اليوم؟ لماذا لا نتعامل مع الواقع

ضمن مقتضيات جديدة وننسى ما حصل في تفاصيل تلك الواقعة.

لقد أراد الحجة ﷺ أن يعلّمنا أن كل حدث وقول، كل فعل وردّة فعل حصلت في كربلاء، لا تمثل عندنا أمراً قابلاً للنقاش يُفتتح على التبديل والتغيير. بل إن كل ما حصل في تفاصيل كربلاء يرمز إلى وقائع وحقائق نتوجه إليها بما هي ثوابت لدينا، ثوابت في وجداننا وقناعاتنا، في ضمائرنا وانتمائنا، في علاقتنا معها، بأن نضحّي بكل ما نمتلك، وبكل ما يمكن لنا تقديمه، لأننا من كربلاء وعلى أرضية كربلاء ومن ذاكرتها. ومن استحضارها الدائم نبني حاضرنا، كما أننا نبني علاقة مع المستقبل ودعوة الخلاص التي ننتظر، مع القيام الذي شعاره وهدفه وقيمته الكبرى هي: يا لثارات الحسين تحت لواء صاحب العصر ﷺ.

كربلاء بواقعها تمثل عندنا هذا الماضي، الحاضر فينا دوماً بكل خصائصه ومميزاته. لينقلنا إلى مستقبل ننتظره من أجل أن نرى فيه إشراقة نور الله في أرضه، مع صاحب العصر والزمان ﷺ، أرواحنا لتراب مقدمه الفداء. وجعلنا الله وإياكم من أصحاب وأشياع كربلاء، وممن يسكنون حب الحسين عليه السلام في نفوسهم، ليدخلوا إلى سفينته، التي ليس لها ربّان في هذا العصر وفي العصر القادم إلا الحجة بن الحسن ﷺ. إن ربي سميع الدعوات.



الفصل الثاني

السلام الخاص ـ السلام الحامل مضامين الولاء



السلام الخاص
السلام الحامل مضامين الولاء

ورد في الزيـارة المبـاركـــة:

«السـلام عـليك يـا مـولاي، وعـلـى الملائـكـة المرفـوفين حـول قـبّـتك، الحـافّين بتربتك، الطائفين بعرصتك، الواردين لزيارتك، السلام عليك فإنّي قصدت إليك، ورجوت الفوز لديك».

بعد السـلام عـلـى جـمـلـة مـن المسـائـل الخـاصـة بـأبـي عـبـد الـلـه الحسين عليه السلام، على خصائصه وميّزاته، على رزاياه ومصائبه. تدخل الزيارة إلى نوع جديد من إلقاء السلام، سلام يحمل مضموناً ملؤه المعرفة بالإمام الحسين عليه السلام، حيث تُستكمل بالقول:

«السلام عليك سلام العارف بحرمتك، المخلص في ولايتك، المتقرّب إلى الله بمحبتك، البريء من أعدائك. ثم يبرز الجانب الوجداني، سلام من قلبه بمصابك مقروح، ودمعه عند ذكرك مسفوح، سلام المفجوع الحزين، الواله المستكين...».

في هذا المقطع من السلام- قبل الجانب الوجداني نرى **السلام يحمل خصوصية المضمون الإيماني** بشكل مكثف. سيأتي تفصيله تحت أربعة عناوين رئيسية، تتفرّع عن كلٍّ منها مسائل فرعية متعدّدة. وكلّها تعتبر شروطاً أساسية، فيما يخصّ معتقد الموالي:

١) سلام العارف بحرمتك

من جملة ما يميّز هذه الزيارة، أنّ قائلها صاحب الأمر ﷺ يضعنا في خانة من تخطّى مسألة المعرفة بحقهم[١]، باعتبارها واضحة، وهي من مختصّات أصول الدين التي تتناول حقهم ومنزلتهم ومرتبتهم عند الله عز وجل. أما الحديث عن الحرمة ففيه إشارة إلى أن هناك جريمة ومجزرة حصلت. والزيارة بذلك تريد تأسيس تربية في العلاقة مع هذه الملحمة التي قد تم فيها هتك حرمتهم من قبل الظلمة، فيما مارسوه مع أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وكلام المعصوم عن هتك الحرمة دليل على وجوب السعي لمعرفتها. لكي يتم تقدير حجم الخطورة فيما قد حصل. ونحن، حتى يتستّى لنا ذلك، سنلجأ في البحث إلى الذين يتحدثون عن حقه علينا، تماماً كما نبحث عن حق النبي ﷺ علينا كمسلمين.

من الموارد التي يذكرها الشيعة عن رتب ومميزات آل البيت عليهم السلام:

(أ)- أنهم مفاتيح خزائن الله تعالى:

هذه حقيقة لا نستطيع تقديرها حق التقدير، على اعتبارها أمراً غيبياً. إنما يمكن لنا تصوّر، أنه من خزائن الباري عز وجلّ الرزق الذي يرزق به عباده، أو الحياة التي يحيي بها عباده. فكلمة خزائن الله تترك

---

١ - كما ورد في الزيارة الجامعة وغيرها من الزيارات الشريفة.

المجال مفتوحاً على الكثير من الاحتمالات التي تطرأ على ذهن الإنسان. لكن، علينا الحذر الشديد من عدم إسقاط مفهوم الألوهية على دورهم عليهم السلام. كما أنهم ليسوا رزق الله تعالى، بل هم الوسيلة والسبب والمفتاح لخزائنه سبحانه.

(ب)- أنهم عيبة علمه:

بمعنى أنهم المصدر والمعيار والميزان الذي يمثل بوضوح طبيعة المعرفة والعلم الإلهي، وما علينا إلا أن ننهل من هذا المورد المتمثل في أئمتنا الأطهار الذين هم آل رسول الله ﷺ. وقد أخذوه عنه ﷺ بعد أن ألقاه الله تعالى في قلبه.

وهذا لا يعتبر منقصة من شأنهم، بل على العكس تماماً. فحين نقول: إن الإمام علي عليه السلام قد أخذ علمه عن النبي ﷺ يعني أنه أخذه من أعظم وأكمل خلق الله على الإطلاق.

إذاً، هم يمثلون هذا العلم الإلهي الذي بدونهم يضيع، وبالتالي فإن قتالهم هو قتال لعلم الله سبحانه.

(ج)- أنهم أسرار غيب الله ومحال مشيئته وألسنة إرادته:

بمعنى أنّ ما يريد الله تعالى إيصاله إلينا، يوصله من خلالهم عليهم السلام.

وهذا دور من أدوار الوحي الذي لا يمكن أن ينقطع إلى الآن. فأنا كإنسان كما أنت على اتصال مع الوحي بطرق عدة. ومن أفضلها، أنني أتواصل معه بطريقة لا أعرفها، إنما أعرف أنها حاصلة بسبب أصل لطف وجود قائم آل محمد عجل الله فرجه.

كيف؟ جوابه من الأمور الخاصة بأسراره عجل الله فرجه.

(د)- أنهم حقائق مظاهر أسمائه ومثله العليا ونعمه التامّة:

وهذا يعني أن الباري عز وجل أولى أمير المؤمنين عليه السلام كما باقي الأئمة عليهم السلام نعمه التامّة. وهي أنه واحد من أسرار الله في رزقه لعباده. فلا يجوز تفسير المسألة على أنه عليه السلام هو الرازق. لأن أسماء الله لا توزع على الأئمة بحسب ما نراه مناسباً.

بناءً على ما تقدم، يمكن تأسيس القاعدة التالية:

عند التوجه إلى الله، ندخل إلى رحمته تعالى من بابه الذي منه يؤتى، أي من النبي محمد صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام.

❖ أقصر الأبواب وأسرعها

أبو عبد الله الحسين عليه السلام بحسب الروايات قد أوليَ من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ميزة خاصة، هي أنه أقصر باب يدخل منه مباشرة إلى رضوان الباري سبحانه وتعالى، دونما سؤال أو مشاجرة أو عتاب، عند الموت وفي القبر ويوم الحشر. هو الباب الأقصر والأسرع والذي يمكن أن نسمّيه بالصراط. (لغوياً الصراط من الصرط، بمعنى الابتلاع السريع) بحيث إنك ما إن تقف، وتريد التوجه إلى نقطة تقابلك، فإنّ تلك النقطة تجذبك إليها وتأخذك كأنها تبتلعك. فالصراط الذي يأخذك إلى ربك مباشرة دون أية صعوبات كبرى إنما هو باب أبي عبد الله الحسين عليه السلام. وهنا يكمن الكلام عن الشفاعة الاستثنائية له عليه السلام. كما إننا نلحظ أن صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه يقول له في هذه الزيارة المقدّسة: بما أن الأقدار منعتني عن نصرتك (بالجسد) لأندبنك صباحاً ومساءً، لأنه ليس هناك باب أعظم منه عليه السلام لتحقيق رضا الباري عز وجل. حتى صاحب الأمر عجل الله فرجه يناشد الإمام الحسين عليه السلام بمثل هذه المناشدة.

هنا لا بدّ من التأكيد أن معرفة حدود حرمة الإمام الحسين عليه السلام شرط لازم لإعلان الولاء والبراءة - اللذين سيأتي الحديث عنهما- وبناءً على ما سبق ذكره، فإن حرمته عليه السلام تعني حرمة الله سبحانه وحرمة رسوله محمد صلى الله عليه وآله، بل وحرمة كل نبي ووصي وولي.

٢) المخلص في ولايتك

كل الأئمة عليهم السلام إنما يمثّلون أئمة الولاية المحمّدية، وفي الحديث المطوّل عن الإمام الحسين لا يضلّنّ أحد الطريق، فيجعل منه نقطة المركز في الولاء دون غيره. وكذلك الأمر مع أمير المؤمنين عليه السلام، وإنما هم حقيقة واحدة ونور واحد.

كشاهدٍ على ذلك، نذكر مقطعاً من الزيارة الجامعة الذي يقول: فمعكم معكم، لا مع غيركم، آمنت بكم، وتوليت آخركم وهو قائم آل محمد عجل الله فرجه بما توليت به أولكم. بهذه الكلمات أعلن أنكم جميعاً حقيقة واحدة، تتعلق بولايتي لربي سبحانه، وبما أنكم مع رسولنا محمد صلى الله عليه وآله حيث أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد، فأنتم تمثّلون الوجه الأتم لله، بمعنى أنكم آيات الله ومظاهره الأتم، فأنا أوالي آخركم بما أوالي به الأول منكم. فكلكم بالنسبة لي، شأنكم شأن واحد. إذاً، طبيعة ولائي لأي منكم هي واحدة. والتعبير عنها يكون بعبارة واحدة وهي: الولاية المحمدية. فنقطة المركز في الولاء إنما هي رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله. وما من قطرة دم سالت من أبي عبد الله عليه السلام، أو عرق قطع في كربلاء إلا فداءً لحفظ ذكر جده محمد صلى الله عليه وآله.

هذا النحو من الولاية يجب أن يدخلنا في بُعد علاقة الولاية المعنوية مع الإمام الحسين عليه السلام، وكيف أنها تمثّل الولاية لله، وللرسول، وللأئمة الأطهار عليهم السلام، حتى قائمهم عجل الله فرجه. وسيأتي تفصيل الحديث عن الولاء

المخلص وأصحابه، بعد استعراض أقسام المسلمين من حيث اعتقادهم بهذا الموضوع.

❖ أقسام المسلمين باعتبار مفهوم الولاء لديهم:

أ- قسم اعتبر أنّ الولاء يعني المحبة. فاقتصروا على محبة النبيﷺ. وما تعيينه ﷺ للإمام علي عليه السلام ولياً للمسلمين إلا بمعنى أنه حبيبهم فقط! هذه ثقافة غير شيعية وغير ولائية.

ب- قسم آخر اعتبر أنّ مجرّد إعلان الولاء لآل البيت عليهم السلام كافٍ دون أية مستتبعات أخرى. فالمسألة عندهم هي هوية انتماء فقط. فيتسابقون إلى تأكيد هذا الانتماء دون وجود بعد وجداني أو معنوي أو روحي، ودون أي تأثير في النفس أو السلوك. وهذا الاتجاه نجده في وسط بعض الشيعة الذين يهتمون بالطائفة أكثر من الالتزام.

ج- جماعة شبيهة بسابقتها، تعتبر أنّ الولاء هو التأكيد على حب الأئمة عليهم السلام بما هم أئمة، وليس بما هم أصحاب ولاية لأن ذلك يستوجب منهم بعض الأمور فيتسابقون في إظهار موضوع المحبة، وغالباً ما تظهر فيهم بعض مظاهر الغلو. بحيث إنهم قد ينزلون الأئمة عليهم السلام منزلة لا يحق لهم إدراجهم فيها. كاعتبارهم مثلاً أنّهم عليهم السلام أفضل من النبي ﷺ. هؤلاء مع ندرتهم، إلا إنهم موجودون ومحسوبون على الشيعة. صحيح أنهم يختلفون عن الجماعات غير الشيعية المذكورة في القسم الأول، ولكن بالشكل فقط، أما في المضمون فإنهم وأولئك على حدّ سواء، لاعتبارهم أنّ المحبة تغني عن الانقياد والاتباع. لذا فإن ثقافتهم مدسوسة وليست أصيلة وليست شيعية.

د- الاتجاه السليم المعتمد لدى الشيعة ذوي الثقافة الأصيلة، النابعة من فهم ثقافة أهل البيت عليهم السلام. يعتبر أنّ الإخلاص في الولاء يعني

الإخلاص في الاتباع والانقياد، والطاعة والتسليم في كل أمر من الأمور الاعتقادية والمعنوية والشرعية.

❖ أصحاب الولاء المخلص من خلال:

- أكمل آيات الله، وحديث الإمام الباقر عليه السلام

آيات الله قسمان:

١- آيات تدوينية، عبارة عما أنزل من كتب ورسالات سماوية، وأكملها القرآن الكريم.

٢- وآيات تكوينية، كالأرض والشمس والإنسان... وأكملها الأنبياء عليهم السلام والأئمة عليهم السلام. وهم يضارعون ويساوون الآيات البيّنات التدوينية.

وحيث إن آية الله التامّة والكاملة هي القرآن الكريم، وآية الله التامّة والكاملة هي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله - وما يمثله من خط متحقّق بالأئمة عليهم السلام - فإن ما يصحّ على كتاب الله عز وجل يصح على الرسول والأئمة عليهم السلام، كما يستفاد من الكثير من الروايات.

من هنا، يمكن استنتاج ميزات أصحاب الولاء المخلص من خلال رواية الإمام الباقر عليه السلام التي تصتف قرّاء القرآن الكريم إلى ثلاثة.

نص الرواية:

عن أبي جعفر عليه السلام: قراء القرآن ثلاثة، رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة[١]، واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس[٢]، ليرفع من شأنه. ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده، وأقامه إقامة

---

١ - مكسب.

٢- تكبّر.

القدح[1]. فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن. ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه[2]. فأسهر به ليله[3] وأظمأ به نهاره، وقام به في مساجده، وتجافى به عن فراشه[4]، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء[5]، وبأولئك يديل الله من الأعداء، وبأولئك ينزل الله الغيث من السماء[6]. أي أنه تعالى؛ بهم وعلى أيديهم ينصر أمة محمد بن عبد الله ﷺ على عدوّه وعدوّ آل محمد ﷺ. ولأجل كرامتهم تمطر السماء للإتيان بالرزق.

هنا يجب الالتفات إلى أن المسألة ليست مجرّد قيام ليل أو صيام نهار، مع الاشتغال الظاهري بالقرآن فقط، بل إنّ تصرفات ذلك الشخص تكون طبقاً لما يطلب القرآن الكريم منه. فيتصدى للشأن العام، ويحارب العدو، وينصر قضايا المظلومين في الأرض. هذا من حملة القرآن الحقيقيين. لأن هنالك فارقاً كبيراً بين من سُمّي بحافظ القرآن وقاتل مع أمير المؤمنين عليه السلام أو مع الإمام الحسين عليه السلام، وبين من حفظه ثم ذهب لذبح أبي عبد الله أو حرّض على ذلك، أو حتى رضي به. الاثنان حافظان للقرآن، إلا أنّ الأوّل قد حفظه بالروح قبل أن يحفظه بالحرف، والثاني توقف عند الحرف ونسي أو أغفل روح القرآن ودلالاته ومعانيه، وتوجيهات هدايته.

كذلك الأمر بالنسبة إلى مستوى العلاقة مع أهل البيت عليهم السلام. فقد نجد شخصاً يتحدث ليل نهار عن الرسول الأكرم ﷺ أو عن أحد

١- تعامل معه كشيء من الأشياء.

٢- أيقن أن القرآن فيه شفاء للناس، فاتخذ منه دواءً يشفي به أمراضه النفسية والقلبية.

٣- بالتلاوة أو الحفظ أو التفكّر أو تربية الذات.

٤- فجعل الباري عز وجل مجموعة من الأمور تنعكس في تصرفاته ودوره.

٥- بلاء الظَلَمة، والجوع، والتحلّل الأخلاقي.

٦- الشيخ الصدوق الخصال، تحقيق علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، ص١٤٢.

المعصـومين عليهم السلام. وقـد حـفـظ مـثـلاً نـهـج الـبـلاغـة أو الـصـحـيـفـة السجادية، ويزايد على الناس بما حفظه، إلا أن فعله وتصرفاته تدل على شائبة ما. كما قد تجد شخصاً آخر يقيم مجالس العزاء باستمرار دون انقطاع، لكن لهدفٍ شخصي، كالسمعة أو الرياء مثلاً، هؤلاء كالصنفين اللذين قال فيهما الإمام الصادق عليه السلام: فلا كثّر الله هؤلاء بينما تجد شخصاً قد لا يقيم هذا العدد من المجالس، وقد لا يحفظ نهج البلاغة والصحيفة السجاديـة عن ظهـر قلب، إلا أنـه تبنّى الحسين عليه السلام كقضيـة وأخلص لهـا. فجعـل كمـا عبّـر الإمـام الخميني قدس سره كـل أرض هـي كربـلاء، وجعـل كل يـوم وزمن هو زمن ويوم عاشوراء. هناك فارق كبير بين الاثنين.

إذاً، عنصـر الإخلاص في الولاء - أو التولي - معناه الانقياد، والدفاع عن القضية التي تحمل، والشخص الذي تؤمن به[1]. وحتى ينضبط هذا العنصر، لا بدّ أن يتعاضد مع الحب للإمام الحسين عليه السلام بما هو مقرّب إلى الله وشفيع لذلك التقرّب، لأنه من الصعوبة والخطورة بمكان.

ذكر عن النبي صلى الله عليه وآله حديثٌ يعتبر في مضمونه أن الناس في خطر، والناجون هم أهل الإسلام، وأنّ المسلمين في خطر، والناجون هم أهل الإيمان، وأنّ المؤمـنين في خـطـر.. إلى أن يصـل الحديث إلى أهـل الإخلاص، فيقول: والمخلِصون في خطر عظيم. لأنه رغم إخلاصهم، إلا أنهم بسبب عدم العصمة، قد يرتكبون أموراً تسبّب زلة القدم في حركة السير على سواء السبيل. فالخطورة موجودة إذاً، حتى عند المخلِصين، لذا كان لا بدّ من المحبة، لضمان تحقيق رضا الله. فنستشفع بمحبة محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله، حتى تكون تلك الشفاعة والمحبة عضداً في حسن الولاء لهم عليهم السلام.

---

١ - مضافاً إلى أمر سيأتي ذكره لاحقاً، وهو أمر التبرّي.

٣) المتقرّب إلى الله بمحبتك

كيف تكون المحبة؟

بعد أن واليت، وأخلصت في الولاء، إني متقرّب إلى الله بالمحبة لأبي عبد الله عليه السلام. فسّر البعض الولاية بالمحبة، وعند ذكر حديث الغدير: من كنت مولاه فهذا علي مولاه[1] يعتبر أن الرسول صلى الله عليه وآله يعني بكلامه هذا: من كان يحبني، يجب عليه أن يحب الإمام علي عليه السلام، هذا صحيح. لكن، من قال إن المحبة لا تعني الانقياد والطاعة والاتباع! وهل يمكن أن تحصل ولاية دون محبة؟ أبداً، مستحيل، لا إمكانية للولاية التي تعني معرفة الحق ومعرفة الحرمة دون وجود محبة لهم عليهم السلام، بل إنها أمر مشروط ومن مستلزمات السلام. كل الزيارات تبدأ بكلمة السلام، والأدب المعنوي لأية زيارة يقوم على أساس إلقاء السلام على صاحب المقام باعتباره حياً بمعنى ما من الحياة قد سمع السلام وردّه، سمعنا ذلك أم لم نسمعه. فالمضمون المعنوي لا يحصل ولا يقع إلا بالمحبة المتمثلة بحضور صاحب المقام في القلب وعدم غربته عنه.

❖الغريب ومعنى الغربة

من أكثر العبارات قساوة، ونحن نذكر الإمام الحسين عليه السلام، أن نسمّيه بغريب الغرباء، مع أنّ كلّ المؤمنين يستميتون للوصول إليه عليه السلام. وكذلك الأمر، عند ذكر الإمام الرضا عليه السلام نصفه بأنه الغريب، رغم أنه اليوم يُعدّ أغنى رجل في التاريخ. فكيف يكون غريباً؟ ومن هو الغريب؟

الغريب هو الذي ابتعد عن وطنه. والوطن هو مكان سكن الإنسان وراحته وأنسه. فإذا ابتعد عنه اشتاق إليه.

---

١ – الشيخ الطوسي: «الاقتصاد الهادي إلى سبيل الإرشاد» تحقيق حسن سعيد، جامع جهلستون، قم، ص٢٢١.

غربة الإمام الحسين عليه السلام، كما غربة الإمام الرضا عليه السلام قد تكون بسبب إبعاد الأزمات والأيام لهم قسرياً عن الموطن الذي يرغبون ويحبون الإقامة فيه، وهو حيث رسول الله محمد صلى الله عليه وآله.

هناك بُعدٌ آخر للغربة، هو البعد النفسي، بمعنى أن عدم حضور الشخص في القلب، يجعله غريباً عنه. وعند دعاء الباري عز وجل، إن لم يكن تعالى حاضراً في قلبك، بمعنى أنك لا تشعر ولا تتأثر ولا تعايش حضوره عندك، فأنت تعيش الغربة عنه سبحانه، تعيش الغيب البعيد المتجافي. كذلك الأمر مع الإمام الحسين عليه السلام. فحين لا تشعر أنه حاضر في قلبك ووجدانك، يعني أنه غريب عنك.

نصرة غربته عليه السلام بأن يجعل المؤمن من قلبه الموالي موطناً عرشه المحبة، يحضر فيه الإمام الحسين عليه السلام دوماً. وبذلك يتمّ حضور المركز الذي هو رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، ويتمّ حضور المبدأ والمآل الذي هو ولاية ربنا سبحانه وتعالى.

❖ موضوع الحب والولاء

هل يمكن لنا القول: إن الحب أمر نفسي ونكتفي بذلك؟ في القرآن الكريم، آية كريمة تتوجه إلى الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، مجيبة على هذا السؤال: ﴿**قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي...**﴾[1]. إذاً، موضوع الحب يقتضي بالضرورة سلوكاً عملياً هو الاتباع لمن يريد الباري عز وجل أن يُتّبع. تكمل الآية: ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ...**﴾؛ يعني أنّ الله عز وجل يقبل منكم تقرّبكم إليه من خلال حب واتباع محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله.

بناءً عليه، يمكن إدراج موضوع الحب لله وللرسول صلى الله عليه وآله

---

١ - سورة آل عمران، آية ٣١.

والأئمة عليهم السلام، على ضوء جانبين:

أ- **الجانب المعنوي والنفسي**: بمعنى أن تكون في قلبك فعلاً تحب الإمام الحسين عليه السلام. وهذا الحب يكون حقيقياً بحضور من تحب في قلبك حضوراً كاملاً، كما مرّ ذكره.

أمير المؤمنين عليه السلام لشدة حبه لله، كان يقول:«ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه»[1]. إنّ الله لا يُرى بالعين الباصرة، لكن بحقائق الإيمان حاضر في قلبه دوماً. فكان كل شيء بالنسبة إليه عليه السلام مظهراً لله عز وجل.

هذا الحضور المعنوي، كلما اشتدّ في قلب الإنسان، كلما كان هذا الإنسان أكثر ثباتاً وتأثراً وولاءً لمن يحب. فيكون حاله أمام مصاب الإمام الحسين عليه السلام حال من قال:«تبكيك عيني لا لأجل مثوبة، لكنما عيني لأجلك باكية». هذا الحضور في القلب ليس حضوراً لصورة كوّنت عنه عليه السلام كبطل مقدام، أو لتفاعلٍ مع ما قال وما تصرّف في كربلاء فقط، إنما هو حضور لنفس أبي عبد الله عليه السلام ولولايته. ولعلّ أعلى مستويات ولاية النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام هو تصرفهم في قلوب محبيهم حتى تصبح قلوباً موالية، حينها يكون الحضور لنفس محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

❖أهمية تثبيت الحب في القلب

تلفتنا بعض النصوص الأدبية من الزيارات والمناجاة، إلى ضرورة عمل أهل الموالاة على تثبيت الحب في قلوبهم للرسول صلى الله عليه وآله ولآله الكرام عليهم السلام. منها ما ورد في المناجاة الشعبانية:«إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك». أنا أطلب من الله تعالى هبةً، هي عبارة عن حبه تعالى.

١- الشيخ البهائي: «مشرق الشمسين» مكتبة بصيرتي، قم، ١٣٩٨، ص٤٠٢.

لكن ليس على نحو الانفعالات النفسية. إنما المقصود هو تجلّي رحمته، ولطفه وأنعمه على من يحب، فيشعر الموالي بالأنس والقرب الإلهي حين يطلب منه «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك» وهذا لا يحصل إلا بحبك يا الله. «وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك» عندها وحين تراك «حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعز قدسك».

كل ما تقدّم يتعلق بالجانب المعنوي للحب والولاء. ثم تكمل المناجاة متناولة الجانب الثاني.

ب- الجانب العملي للحب والولاء: «إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك». الإجابة تدل على فعل وانقياد وسلوك ما. إذ لا يوجد حب في الفراغ، بل لا بدّ أن يمتثل هذا الحب كما يريد من تحب فعلاً، وأن تنقاد لمن تحب فعلاً. وهذا ما يسمى بالتولي، أو نظام الإمامة الهادية.

عندما أنقادُ إلى رسول الله محمد ﷺ النبي والرسول والإمام، عليّ أن ألتزم خطه ونهجه كما يريد هو. ففهمنا لإمامة الإمام هو أن نتّبعه بالطريقة والأسلوب والشكل الذي يحدّده بنفسه، لا الذي نفرضه نحن. وعندما يصرّح أمير المؤمنين عليه السلام مثلاً قائلاً: إنما أنا عبد لمحمد، لا يحق لي رفض أو حتى مناقشة هذا الموضوع، الإمام شرح حدود الموقف، وأنا عليّ التسليم بذلك كموالٍ ومحب فعليّ. كذلك الأمر بالنسبة إلى الإمام الحسن عليه السلام، لا يجوز اتهامه بالتقصير - والعياذ بالله - فالأصل ليس أن تحاسب أنت الإمام على فعله، بل أنّ الإمام يحدّد لك ما تفعله. وكما عبّرت الروايات، أن صاحب الولاء الفعلي هو الذي إن قال له إمامه اقعد قعد، وإن قال له قم قام.

إنّ سلوك درب الهداية والنجاة يكون بالانقياد الفعلي لنمط وأسلوب

وطريقة الإمام الحسين عليه السلام عبر الطاعة المطلقة، والحب اللامتناهي لله عز وجل. حيث قُطّع جسده الشريف في كربلاء في سبيل القضية التي حملها وهي حفظ الإسلام العزيز، وحفظ ذكر جده محمد صلى الله عليه وآله.

❖ نماذج تجلي الحب في أعلى مستوياته

الأم تعتبر أنّ المركز الفعلي لطفلها هو قلبها. تجلس بعد صيام نهار طويل وشاق لتأكل، وإذا بطفلها يقع فجأة على الأرض، فتترك لقمتها بشكل تلقائي لتتلقّاه، وترى ما جرى عليه، حتى لو كان الحادث صغيراً. يلاحظ من ذلك، أن ردة فعل أهل العطف والحب إجمالاً، لا يمكن تحديد كيفيتها أو حتى تكهنها.

وهذا ما يفسّر لنا بعض المواقف التي جرت في كربلاء، والتي يمكن لمتابع السيرة الحسينية، أن يفترض مثلاً أنّ العباس عليه السلام لو أنه شرب وارتوى عند وصوله إلى الماء، فقوّى جسمه وقام للقتال، لكان أفضل من رمي الماء بعد الوصول إليه ولمسه. هذا الفرض، نظرياً وحسب المعادلات المادية، هو فرض صحيح. لكن في علاقات الحب، وحضور الإمام الحسين عليه السلام في قلب العباس، هو أمر مرفوض. الرواية تصف قتاله المستميت، لأجل الحصول على الماء، الذي به كان يريد أن يدفع عن الإمام الحسين عليه السلام قبل إرواء العطاشى أذية ما كان يسمعه عليه السلام من أنينهم في كربلاء. وحين وصل إلى الماء، أخذ غرفة منه بيده، شعر ببرودته، لكن وفي هذه اللحظة بالذات، استفاق في قلبه عطش الحاضر في قلبه دوماً. فما كان منه إلا أن ألقى الماء من يده بطريقة ما، لأنه صمّم حباً وانقياداً لأبي عبد الله عليه السلام، أن لا يذوق الماء قبل أن يشرب منه حبيبه.

وهذا مسلم بن عوسجة، يئنّ من الألم عند استشهاده، فيقف حبيب

بن مظاهر إلى جانبه قائلاً: لو أني أستطيع تنفيذ وصيتك، لكنت سمعت منك كل ما تريد أن توصيني به، لكني وراءك في المسير. أجابه مسلم: أوصيك بهذا[1] مشيراً إلى الإمام الحسين عليه السلام، فرغم آلامه وجراحه ما زال حضور حبه عليه السلام مهيمناً على قلبه.

وعندما قال الإمام الحسين عليه السلام لابنه علي الأكبر، بعدما شكا له عطشه: «قاتل، يسقيك جدك رسول الله محمد بكأسه الأوفى شربة لن تظمأ بعدها أبدا»[2]. لم يتعامل علي الأكبر مع هذا الموقف كنوع من التواصي بالصبر فقط، إنما فعلاً ذهب كي يحظى بشربة الماء تلك. قاتل حتى قطّع جسده الشريف، فنادى أباه بعدما سلّم عليه، قائلاً: «إنّ جدي رسول الله محمد يقرئك السلام، وها هو يسقيني من كأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبداً»[3].

إذاً، هنالك حضور حقيقي لحب الحسين عليه السلام وحب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحب الله في النفوس، ما جعل كربلاء تتميز في ثباتها، فتصنع المعجزات كلما تكرّرت تجربة المواجهة عند المحب الموالي.

لا تستطيع الدخول في موضوع الحب إن لم تبدأ أولاً بإعلان أنه إمامك، وبأنك تلتزم بكل أمر من أوامره. واتباعك له كمظهر للمحبة يعضد في شفاعته الإخلاص له بالتولي، الذي لا يتحقق إلا بإضافته إلى التبرّي من أعدائه.

٤) البريء من أعدائك

الولاية تقسّم على أساس الإخلاص لله تعالى إلى قسمين: التولّي

١- ابن نما الحلي: «مثير الأحزان»، المطبعة الحيدرية، النجف، ص٤٧.

٢- ابن طاووس: «لهوف سيد ابن طاووس» دفتر نشر نويد اسلام، ط٥، ١٣٧٨هـ.ش، ص١٣٨.

٣- م.ن، ن.م.

والتبرّي. التولي قد مرّ الحديث عنه. أما التبرّي فلا بدّ من البحث عن مدلول هذه الكلمة، لكونها شرطاً في فهم مضمون التولّي.

هل التبري هو البحث عن الأعداء والإكثار منهم، والإعلان عن حالة الكره والحقد تجاههم[1]؟ وهل كل من لا يقول بمقولتنا يجب نبذه واعتباره عدواً، وبالتالي تجب البراءة منه؟سنتحدّث عن مدلول كلمة التبرّي، ثم نتعرّف إلى كيفية التعامل مع الآخرين، من خلال أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام، التي على ضوئها يتم تحديد صنوف الأعداء الحقيقيين، بهدف تحقق مفهوم الولاية بقسميها في نفس الموالي، ومعرفة آثار هذا التحقق.

❖ معنى التبرّي[2]

بعد التدقيق في هذه المفردة، نجدها تعود إلى ما برأه الله أي ما خلق الله عليه الناس.

في الإسلام، الله عز وجل حين خلق وبرأ الناس، لم يخلقهم أو يبرأهم على أساس العداوة أو المعصية أو الخطيئة، بل على فطرة حبه والانجذاب نحوه، والعمل على توطيد حسن العلاقة معه سبحانه وتعالى. وهذه الفطرة في الأساس هي مبرّأة؛ بمعنى أنها مبنية على الطهارة والقداسة والحب لله تعالى ولكل من أو ما ينتمي إليه سبحانه.

فإذا جاء ما يعكّر صفوها، وصفو هذا الحب الإلهي في قلب إنسان ما، فإنّ عليه أن يُبرئ ذمّته من كل ما يعيق هذه العلاقة بينه وبين

---

١ - كما يدّعي البعض على الشيعة، عند إحيائهم مراسم عاشوراء.

٢- يقول الخليل الفراهيدي في كتاب العين ج ٨، ص ٢٨٩ : برأ : البرء ، مهموز : الخلق . برأ الله الخلق يبرؤهم برءآ ، فهو بارئ . والبرء : السلامة من السقم تقول : برأ يبر أو يبرؤ برءا وبرؤءا . وبرئ يبرأ بمعناه . والبراءة من العيب والمكروه ، ولايقال إلا : برئ يبرأ ، وفاعله : برئ كما ترى ، وبراء ، وامرأة براء ، ونسوة براء ، في كل ذلك سواء . وبراء على قياس فعلاء : جميع البرئ ، ومن ترك الهمز قال : براء . ويقال : بارأت الرجل ، أي : برئ إلي وبرئت إليه ، مثل بارأت المرأة ، أي : صالحتها على المفارقة . وتقول : أبرأت الرجل من الدين والضمان ، وبرأته.

محبوبه، فيرفضه كارهاً له، غير مبالٍ به. ولعلّه من أكثر الدلالات لمعنى العداوة هي اللامبالاة بحسب التتبّع لبعض الروايات. والإنسان الذي يريد أن يكون كلّه لله، عليه أن يعرض عن الدنيا. ولا يبالي بها حين تريد أن تحرفه عن مساره الصحيح.

إذاً، البراءة هي حالة رفض لانشغال النفس بغير الحب، أي رفض كل ما تتضرر به النفس من شحناء وفتن، وكره بين الناس أو ظلم لهم... فيتبرّأ الموالي من هذه المواصفات السلبية السيئة، ولا يتقبلها.. بل ويتبرّأ من كل ما يثيرها ويسببها..

الشيعة والعداوات

التشيّع الإسلامي الأصيل يبرز من خلال القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للرسول الأكرم ﷺ ولأهل بيته عليهم السلام. لذا فإن علينا البحث في الروايات الشريفة، لفهم النظرة الشيعية في أسلوب التعامل مع الآخرين، حيث يمكن استخلاص النقاط التالية:

أ- تجنب العداوة مع الناس: ورد عن الإمام علي عليه السلام: معاداة الرجال من شيم الجهّال[1]. ما يعني أن البحث عن الإكثار من العداوات، يعدّ جهلاً ومرضاً. وعن الإمام الباقر عليه السلام، في توجيه خطابه إلى الشيعة يقول: إياكم والخصومة فإنها تحبط العمل وتسقم الدين[2]. وفي نفس السياق، ذكر عن الإمام الصادق عليه السلام: إيّاك ومعاداة الرجال[3]. كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: من زرع العداوة حصد ما بذر[4]. أي إنك عندما تبني عداوات، لن تحصد إلا عداوات

١- ري شهري، محمد: «ميزان الحكمة»، دار الحديث، قم، ج٢، ص١٨٦٤.

٢- السمرقندي، النضر: «تفسير العياشي» هاشم الرسول المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، ج١، ص١٨.

٣- السمرقندي، النضر: «تفسير العياشي» م.س، ج١، ص١٨.

٤- الكليني: «الكافي»، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، آخوند، ج٢، ص٢٠٢.

من قبل الغير. وعنه أيضاً عليه السلام: أضعف الأعداء كيداً من أظهر عداوته[1]. يعني لنفترض، أنك تعادي شخصاً ما، من قلة الخبرة أن تبيّن عداوتك له؛ لأنك بذلك تقوّيه وتلفت نظره إليك، في حين أنه لا داعي لذلك كله.إذاً، الأصل عند الشيعة عدم البحث عن عداوات، بل على العكس تماماً كما سيأتي.

ب- الحث على استصلاح شؤون العلاقة مع الآخرين، حتى مع الأعداء: ورد في الكثير من الروايات الشريفة لتوضيح وتأكيد هذا المطلب. ولعله من أكثر الناس خبرة في هذا المجال هو الإمام علي عليه السلام. فقوله الحق دائماً[2]، مضافاً إلى قربه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله خلق له الكثير من العداوات، ونحن علينا الاستفادة قدر الإمكان من وصاياه وأحاديثه، لعلمه وعصمته وخبرته عليه السلام. نختار منها:

«الاستصلاح للأعداء بحسن المقال وجميل الأفعال أهون من ملاقاتهم ومغالبتهم بمضيض القتال»[3]. بمعنى أنك إذا استطعت دفع شرّهم عنك بالقول الحسن والعلاقة الطيبة، يكون ذلك أفضل من الدخول معهم في معارك، طالما أنّ ذلك الخيار مفتوح.

وعنه أيضاً عليه السلام «عمن استصلح عدوّه زاد في عدده»[4]. وخير مثال على ذلك هو تجربتنا في لبنان. حيث كان أغلب المجتمع ينظر إليك كمسلم شيعي تتكلم عن الثورة والمقاومة، نظرة عداء. لكن، عندما أحسنت العلاقة والمقال - طالما أنّ ذلك ممكن - زاد عدد المناصرين حتى لشعاراتك، من جهات كانت تاريخياً تعتبر خصيمة لك.

١- المجلسي «بحار الأنوار» مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ج٧٥، ص٢٧٧.

٢- قال عليه السلام: ما ترك لي الحق من صاحب.

٣- الري شهري: «ميزان الحكمة» م.س، ج٣، ص١٨٤٩.

٤- م.ن، ن.م.

ج- عدم الغفلة عن العدو: يجب الالتفات إلى أنّ من يسعى لاستصلاح الأعداء عبر الأخلاق الحميدة، غير المغفّل الذي ينام عن عدوّه. وفي هذا المورد قال أمير المؤمنين عليه السلام: من نام عن عدوّه أنبهته المكائد[1]. و لا تأمن عدوّاً وإن ضعف[2]. كما أنه عليه السلام نبّهنا إلى من يمكن أن يكون عدواً لنا في قوله: من كان نفعه في مضرتك، لم يخلُ في حال من عداوتك. ليس الشخص المقصود هو من تحتمل أنه سيضرّك، بل هو الذي تكون مصلحته في إضرارك، فاعلم أنه ستأتي لحظة من اللحظات ويعاديك فيها، وينصب لك المكائد..

د- الاستعداد الدائم للمواجهة: ألفت عليه السلام إلى ذلك بقوله: من ضعف جدّه قوي ضدّه[3] و من ركب جدّه قهر ضدّه[4]. المقصود من الحديث الأول، أنه إن لم تقوّ نفسك فلن يُرهب جانبك، وسيقوى عليك خصمك. والعكس في الثاني، إذا بذلت وقوّيت وضعك، ستنتصر على عدوّك، حتى وإن لم تحصل المواجهة.

من الأحاديث التي مرّ ذكرها يمكن استخلاص ما يلي:

إن الأصل عند الشيعة عدم معاداة أحد، كما يجب استصلاح شأن العلاقة مع العدو، إذا كان هذا الخيار مفتوحاً. لكن ذلك لا يعني الغفلة أو عدم الالتفات الدائم إليه كعدو، بل ينبغي الحضور في جهوزية كاملة، مع رؤية واضحة وجلية عنه، مضافاً إلى الإعداد المستمر للعدة التي تستخدم في المواجهة والدفاع إن حصلت المجابهة.

١- ميزان الحكمة، م.س، ن.م.

٢- م.ن، ص٢, ١٨٤٨.

٣- م.ن، ج٣ ص١٨٤٩.

٤- م.ن، ن.م.

❖ بعض صنوف الأعداء الحقيقيين

إن الآيات الكريمة، والروايات الشريفة ذكرت صنوفاً من الأعداء، علينا الالتفات إليهم، والتعامل معهم بدقة متناهية، لأنهم أعداء فعليون بشكل ثابت. نذكر بعضاً منها:

أ- النفس التي بين جنبيك

وفي الرواية: أعدى أعداء المرء، نفسه التي بين جنبيه[1]. وعن النبي ﷺ: والذي نفسي بيده، ما من عدوّ أعدى على الإنسان من الغضب والشهوة، فاقمعوهما، واغلبوهما واكظموهما[2]. أول تدريب لمواجهة الخصم الخارجي يبدأ في مواجهة عدوك الذي في داخلك، وهو نفسك وذاتك. يجب أن تقمعها لتحجبها حتى عن التفكير- في لحظة من اللحظات- أن تتعدى على إرادتك، كذلك الأمر مع العدو الخارجي.

ب- الشيطان

بحسب الكثير من آيات القرآن الكريم التي تحذّر بني آدم منه. على سبيل المثال نذكر الآية الكريمة: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾**[3].

ج - الظالم

ورد في وصية الإمام علي عليه السلام لأبنائه: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً[4].

د- مجموعة من الناس، لها مواصفات مخصوصة

ذكرت في بعض الزيارات والأحاديث، كالزيارة الجامعة التي تقول

١- الري شهري، ميزان الحكمة، م.س، ج١، ص١٤٥٣.

٢- م.ن، ج٣، ص١٨٤٩.

٣ - سورة فاطر، آية ٤-٦.

٤- الري شهري، ميزان الحكمة، م.س، ج٢، ص١٧٧٨.

موجّهة الحديث إلى الأئمة عليهم السلام: برئت إلى الله عز وجل من أعدائكم، ومن الجبت والطاغوت والشياطين، وحزبهم الظالمين لكم، الجاحدين لحقكم، والمارقين من ولايتكم[1]، الغاصبين لإرثكم، الشاكّين فيكم المنحرفين عنكم، ومن كل وليجة دونكم[2]، وكل مطاع سواكم، ومن الأئمة الذين يدعون إلى النار[3]. بعض المفسّرين ذهب إلى تحديد الجبت والطاغوت بالأسماء. والبعض الآخر اعتبر أنها في الأساس متعلقة بالأصنام والسحرة ومسائل من هذا النوع. لكن بالعموم، الصفة العامة لهؤلاء، أنّ كل صاحب ميزة أو خط يريد أن يسنّ ستّة الانحراف عن الصراط السويّ، الذي يمثله محمد صلى الله عليه وآله وآله الأطهار عليهم السلام، بشكل معادٍ واضح، برئت إلى الله منه. وشهدنا بعض النماذج التاريخية من هؤلاء، قد واجهوا الرسول صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام.

❖ تحقّق مفهوم الولاية بقسميها (التولّي والتبرّي)، وآثاره

أنا كموالٍ، لا بدّ لي على المستوى النفسي من إعلان براءة وسلامة ذمتي من سوء تصرّف هؤلاء وأعمالهم. هنا قد يُسأل: هل يصل إعلان البراءة إلى حدّ البغض؟ خاصة أنّ القلب المملوء بالحب لا يعرف البغض! هذا صحيح، لكن عندما يكون كل حبك باتجاه معيّن، فإنك لا تحب خلافه. وفي هذه الحالة قد يُعتبر أنّك تبغضه. على سبيل المثال، إنّ أحدهم لا يحبّ التدخين، ما يعني أنه يمقت شربه. وقد ينزعج منه لدرجة الكره. في الأساس هو لا يحب، والمواصفات الأخرى تأتي تباعاً. إذاً، الأصل في النفس هو الحب.

١- لم يقبلوها.

٢- الوليجة: علماء السوء الذين يُدخلون المعرفة في الدين من غير مصدرها الأساس والمتمثّل بمحمد صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام.

٣- الري شهري، ميزان الحكمة، م.س، ج١، ص٢٢٧.

وردت رواية عن فضيل بن يسار، توضح هذا المطلب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحب والبغض، أمن الإيمان هو؟ أجابه عليه السلام: وهل الإيمان إلا الحب والبغض. ثم تلا الآية الكريمة: ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾[1][2]. هذا يعني أن الله تبارك وتعالى جعل للمؤمنين حالة من حالات عدم التعاطف النفسي مع الكفر والفسوق والعصيان، بل أبلغ من ذلك جعل لهم تقوى وحجاب عن تلك الأمور.

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم الإيمان، ومن أحبّ في الله وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله. فهو من الأصفياء. وهذا دليل على أن دائرة العصبيات الشخصية هي أمر مرفوض، فأنا لا أحب ولا أكره إلا في الله. بناءً عليه، فإن الموقف السلبي العقائدي والتاريخي من كل الذين خرجوا لمواجهة الإمام الحسين عليه السلام ينطلق من أنّ القلب ينبغي أن يكون صافياً خالصاً، مخلصاً موالياً، محباً لمحمد وآل محمد صلى الله عليه وآله، وكارهاً لكل ما لا يمتّ بصلة لصراط محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله الذي هو صراط الله عز وجل.لكن الخطورة تكمن، حين يصبح عنوان البراءة إلى الله محصوراً فقط في تلك النماذج التاريخية، فهذا خلاف كل آية ورواية، وزيارة ودعاء. لأن المسائل ممتدة، بمعنى أنّ كل من سلك مثل هذا الدرب لإعاقة تقدّم رسالة وصراط محمد وآله صلى الله عليه وآله الفطري، تجب البراءة منه، ومن الانتماء إليه، مهما عظمت أو ضعفت قوّته.

ورد في زيارة وارث: «السلام عليك أيها الشهيد وابن الشهيد،

---

١ - سورة الحجرات، آية ٧.

٢- الكليني: «الكافي» م.س، ج٢، ص١٢٥.

السلام عليك أيها المظلوم وابن المظلوم، لعن الله أمة ظلمتك. ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به»[1]. الملفت عند ذكر كلمة أمة، أنها ذكرت بالتنكير. إذاً، المقصود هو كل أمّة إلى أي زمن انتمت ملعونة إذا رضيت بذلك. وأفرادها ليسوا أحراراً بنفوسهم وقلوبهم، بل هم ظلمة وعبيد. لأن الحر في نفسه، لا يمكن له حين يسمع بما حصل في كربلاء، عارفاً بالقضية التي حملها الإمام الحسين عليه السلام ، ثم يرضى بما وقع.

فالإطار هو إطار عالمي كوني، ليس مقيّداً بزمان أو مكان، أو فئة معيّنة من الناس فقط. وتصنيف المشمولين باللعنة لا يتم على أساس الهويات، بل على أساس القناعات والضمير الحر.

هنا قد ترد بعض التساؤلات: حين نسمع أن اللعنة قد تشمل شخصاً شيعياً، وأنّ البراءة قد تشمل من هو غير شيعي. أو عندما نجد أن موالياً لا يتمتع بأخلاق حميدة، وآخر غير موالٍ، لكن أخلاقه حسنة. ما تفسير ذلك؟

حديث الطين من الروايات التي تعود إليها بعض أوساطنا الشيعية في تفسير هذا الأمر، وفي مضمونه أنّ الله عز وجل عندما أراد خلق الناس، جبل جبلة النور لمحمد وآله صلى الله عليه وآله ومن فاضلها كان خلق شيعتهم، الموالين إلى حدّ الصفاء التام. كمالك الأشتر، والإمام الخميني قدس سره ومجاهدي المقاومة الإسلامية وشهدائها. هؤلاء هم الموالون الأصفياء، وليس شيعة الهوية. ثم أنه تعالى جبل جبلة سوداء خلق منها أئمة الكفر والظلم[2]. وتفسير وجود موالٍ لا يتمتّع بأخلاق حميدة أو وجود شيعي

١- را: الشيخ الطوسي مصباح المتهجد مؤسسة فقه الشيعة، بيروت، ١٩٩١، ص٧٢١. والمقصود بهذا الظلم، ظلمت شخصك وخطك سواء كانت في التاريخ الماضي أو على الامتداد التاريخي.

٢- الظلم أصعب من الشرك، هو شرك عظيم وكبير. لذا فإن هذه الكلمة مستقبحة في أدبياتنا الإسلامية، ترفضها روحية التعاطي الإسلامي.

تشمله اللعنة والعياذ بالله هو أن هؤلاء قد وصلهم بعض غبار أو تراب أصحاب الكتلة السوداء، واستقرت في نفوسهم. والعكس صحيح، أصحاب الأخلاق الحميدة من غير الموالين، أو المبرّؤون غير الشيعة قد وصل إليهم بعض الغبار أو الرماد من نور محمد وآل محمد ﷺ فكانوا على خير.مدلول الرواية لا يدل على أن الشيعة في الأصل جميعهم جيد، وكل الباقي سيء. إنما يدل على أن من تبتى ختام الدين وكماله وشموليته، هو الجيد. كما يدل على أن نعمة نور محمد وآله ﷺ قد شملت كل شيء، لأنها من نور الله عز وجل. لقد شملت الأصفياء وغيرهم، حتى الذين كانوا في أصل جبلّتهم من الكتلة السوداء، فقد لحقهم بعض من ذلك النور. وبالتالي، لا يصح النظر إلى الغير نظرة سلبية مئة بالمئة، لأنه لا وجود لعدوٍ خالص إلا من ذكرنا من الأعداء الحقيقيين وإلا من طبع على قلبه وجبينه، مثل يزيد ومن على شاكلته، كونه يمثّل خط الانحراف الجلي المعادي. لكن، لا نستطيع أن نقول عن كل الناس إنها يزيد، كما أننا لا نستطيع إنكار أنّ رحمة الله تعالى قد امتدت إلى غيرنا.

وعليه، إن مبدأنا ومعتقدنا كشيعة في قضية الإمام الحسين عليه السلام أنها قضية عالمية، وبركته أيضاً عالمية، ونوره كذلك. كما أنّ حدود شفاعته عليه السلام أوسع من الأكوان، فلا مانع من النظر حتى لبعض أهل الكفر والعداوة نظرة رجاء أن تشملهم شفاعة أبي عبد الله عليه السلام في وقت من الأوقات، لتغيّرهم إما في الدنيا، أو باستحقاق ما، في وقت ما، يرتضيه الباري سبحانه وتعالى. لأنّ الأصل في النظرة الحسينية إلى الغير هي النظرة الإيجابية بسبب الحبّ والعشق لنور أبي عبد الله الحسين عليه السلام، الذي ملأ قلب الموالي.

هذه النظرة الإيجابية، لا تمنع التأكيد على عناوين الظلم

والمظلومية التي لحقت بأبي عبد الله عليه السلام، فأيّ إخلال بذلك هو إخلال بأصل انتهاج نهجه عليه السلام. وبالتالي، لا يصح التنازل عن أية قناعة موجودة لديك، لا بالتاريخ ولا بالمعتقد ولا بالإيمان، بحجة رغبتك في استصلاح الآخرين، بل إنّ عليك أن تسعى إلى إحضار تمام ما تعتقد من الأحداث التي جرت، والقضايا التي تبتاها الإمام الحسين عليه السلام بين يدي وفي قلب من تحب استصلاحه.

زبدة الكلام، أن الإخلاص لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله ولأبي عبد الله عليه السلام يعني علاقة حب وولاء وانقياد تام له عليه السلام. ولا يتم ذلك إلا بحفظ النفس بسلامة من كل ما يعيق تلك العلاقة، بل وتدميره، وهذه هي البراءة من الأعداء. حتى يتم حضوره عليه السلام في قلوبنا بشكل دائم، حضوراً يجعل في القلب قرحة وللدمع انسفاحاً من مآقي الأعين عند مجرّد ذكره الشريف. حضوراً يهدّ أركان الجسد، فيغيّر لون الوجه شاحباً أصفر، كما كانت حال أئمتنا عليهم السلام، حينما يستقبلون مطالع شهر محرّم الحرام بوله واستكانة وضعضعة، وبكاء وندب. حضوراً يعيش كلمات الزيارة المقدّسة بكل الكيان والجوارح عند قراءة:

«السلام عليك يا مولاي، وعلى الملائكة المرفرفين حول قبتك، الحافين بتربتك، الطائفين بعرصتك[1]، الواردين لزيارتك، السلام عليك، فإني قصدت إليك، ورجوت الفوز لديك، السلام عليك سلام العارف بحرمتك، المخلص في ولايتك المتقرّب إلى الله بمحبتك، البريء من أعدائك، سلام من قلبه عند ذكرك مقروح ودمعه عند ذكرك مسفوح، سلام المفجوع الحزين الواله المستكين، سلام من لو كان معك بالطفوف لوقاك بنفسه حد السيوف، وبذل حشاشته دونك للحتوف، وجاهد بين يديك ونصرك على من بغى عليك، وفداك بروحه وجسده،

١- الساحة الواسعة.

وماله وولده. وروحه لروحك فداء، وأهله لأهلك وقاء. فلئن أخّرتني الدهور، وعاقتني عن نصرك المقدور، ولم أكن لمن حاربك محارباً، ولمن ناصب لك العداوة مناصباً[1] لأندبنك صباحاً ومساءً، ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً، حسرة عليك وتأسّفاً على ما دهاك وتلهفاً، حتى أموت بلوعة المصاب وغصة الاكتئاب».

من القائل؟ القائل هو إمامنا قائم آل محمد ﷺ. وكأنّي به في تلك اللحظات، وفي كل آنٍ، يرقب أمام عينيه كربلاء، ساحة مفتوحة لحظة بلحظة، كأنّي به ينظر بقلبه وروحه ووجدانه وعينيه، تلك الساحة التي تحترق فيها الخيام، وزينب ابنة أمير المؤمنين عليه السلام، ابنة العفة والخباء تُهتك حرمتها من أجل أن يقال للعالم: إنّ حرمة محمد قد هتكت، فينتفض الدم من عروق القائم من آل محمد، يبكي ويندب ويحترق قلبه لأبي عبد الله وزينب، ويتوكأ سيفه، ينتظر لحظة الثأر لحرمة محمد وآل محمد، والمظلومية التي حلّت بهم ﷺ. وليزرع في قلوبنا وضمائرنا، وأرواحنا ودمائنا، أن نكون دوماً مع كل ندبة ودمعة بكاء، نقدّم عربوناً نتقدّم به إلى الله عز وجل، طالبين منه تعالى إما درب الشهادة، درب ذات الشوكة، على خط صراط الحسين. وإمّا النصر المبين لنهج محمد وآل محمد تحت راية قائم آل محمد.

يا رب محمد وآل محمد، بحق حرمة محمد وآل محمد، وبحق بكاء القائم، وندبه وعروقه ودمه، لا تخرجنا من هذه الدنيا إلا ونحن ممن يحمل رايته، نقاتل تحتها وفي ظلها، ندافع عن الحق المسلوب. وإن متنا يا رب، فاجعل من قبورنا خنادق ننتظر فيها موعد اللقاء، لتشرق الأرض بدمائنا، بأنوارك يا الله، إنك يا رب خير من يجيب الدعاء. اللهم وفقنا لكل ما يرضيك عنا إنك أنت السميع المجيب.

١- سأبقى متحفزاً وعلى استعداد دائم بالطريقة التي أقدر عليها.

الفصل الثالث

الشهـــادة



الشهادة

«أشـهـد أنك قـد أقـمت الصـلاة وآتيت الـزكـاة. وأمـرت بـالمعـروف. ونهيت عن المنكر والعدوان، وأطعت الله وما عصيته».

عند توجّه الزائر إلى أبي عبد الله الحسين عليه السلام خلال قراءته لزيارة الناحية المقدّسة[1]، يقف بين يدي الله عز وجل، قائلاً: «أشهد». هذه الشهادة بمثابة وديعة، يضعها الإنسان بين يدي أبي عبد الله عليه السلام، كبذرة يبذرها في هذه الدنيا، ليقطف منها يوم القيامة رضواناً وجناناً عند الله عز وجل، تحت لواء أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

لذا، كان لا بدّ من فهم معنى الشهادة وقدسيتها، كما لا بدّ من معرفة خصوصية ما يشهد عليه، والهدف من حصر هذه الشهادة التي أوردها الحجة عجل الله فرجه - في بعض المواضيع دون غيرها.

١- كذلك في الزيارات الأخرى عند توجهه إلى المزار.

❖ معنى الشهــادة

يقول الراغب الأصفهاني في كتاب المفردات إن الشهادة [1] هي: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر[2]. بمعنى أنّ هذا العلم حصل وحضر في نفس المشاهد بشكل يمكّنه حتى من القسم عليه. لأنّ كلمة أشهد قد يقصد منها العلم، وقد يقصد منها القسم، الذي يستبطن التأكيد على العلم والحضور. واعتبر بعض المفسّرين أن الحضور بالبصيرة أقوى منه بالبصر.

الموالي حين يتوجّه للشهادة على أبي عبد الله الحسين عليه السلام، من بعيد أو تحت قبّته الشريفة، ينبغي أن تكون معاني ما يشهد عليه حاضرة في نفسه ووجدانه وعقله، عن علم بما حصل بالبصيرة أو بالبصر - لمن عاصره عليه السلام- وهذا العلم هو يقيني لدرجة أنه قد يقسم عليه. وذلك من مستلزمات الحب الحقيقي لأبي عبد الله عليه السلام الذي يقرّب إلى الله عز وجل في عملية الولاء الفعلي، كما مرّ سابقاً.

❖ الشهــداء

الشهادة أمر مقدّس. وهذه القدسية مستقاة من آيات القرآن الكريم التي يمكن لنا من خلالها تحديد هوية أهم الشهداء:

١- الله تعالى خير الشاهدين وأوّلهم، حيث يقول عز من قائل: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ...﴾[3]، فالله سبحانه هو الشاهد الأول ثم الملائكة وأولو العلم، الكل شهد على التوحيد.

١- شهادة الحق والصدق، لا شهادة الزور التي تعتبر من المحرّمات.

٢- الاصفهاني، الراغب: « مفردات ألفاظ القرآن الكريم» تحقيق إبراهيم مرعشلي، دار المعرفة، بيروت، مادة شهد.

٣- سورة آل عمران، آية ١٨.

٢- الأنبياء عليهم السلام والأئمة عليهم السلام، في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾[1]. فكل أمة يشهد عليها نبيها أو إمامها، ثم النبي الخاتم ﷺ يشهد على أولئك الشهداء، ما يدل على أنه أشرف وأقدس شاهد بعد الله سبحانه وتعالى.

٣- أصحاب الصلاح والعلم، لأن الله سبحانه وتعالى أوردهم في جملة النبيين بقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾[2]. ولعل مدلول كلمة الشهيد الدقيق، من الشاهد، أي العالم والعارف بالحق، وقد وصل إلى أعلى مستويات الثبات عليه، فقدّم مهجته في سبيله.

٤- الناس قد شهدوا على أنفسهم في عالم الذر[3]، قبل خلق الخلق، أخذ الله تعالى منهم إقراراً بربوبيته. أوردته الآية الكريمة: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[4]. هذه الشهادة على النفس تشير إلى الفطرة الموجودة في الإنسان تجاه الله عز وجل، بأنه هو الرب المعبود المطاع. وفي قول «بلى» اعتراف له سبحانه بالتوحيد الذي هو أصل كل الأصول في الإسلام. لذا فإن من أقرّ لله بالربوبية، ولمحمد ﷺ بالنبوّة، ولأمير المؤمنين علي عليه السلام بالولاية بحسب بعض المرويات فقد شهد من نفسه على نفسه، وليس على شيء آخر، في صدق ما هو حاضر فيها من الحقائق الإيمانية.

١- سورة النساء، آية ٤١.

٢- سورة النساء، آية ٦٩.

٣- يسمى عالم الأمر أيضاً أو عالم «ألست».

٤- سورة الأعراف، آية ١٧٢.

❖ خصائص الشاهد

حتى تكون شهادة الزائر مقبولة بقدسيتها، لا بدّ من توفر خصائص في الموالي، يمكن استخلاصها مما مرّ ذكره. وهي:

١- حضور ما يشهد عليه في نفسه وقناعاته، عن علم بالمعاينة والرؤيا البصرية، أو بالبصيرة وحقائق الإيمان.

٢- الصدق في قول الحق، والثبات عليه.كون الشاهد من أهل العلم. وليس المقصود أنه من ذوي الاختصاص بالفقه والأصول أو التفسير وغير ذلك. إنما المقصود من كانت لديه معرفة مودعة من الله عز وجل، تحمل صفة الثبات في النفس والموقف، سواء كان من أهل الاختصاص أو لم يكن منهم. هذا الثبات يورث الخشية في القلب بحيث يُعدّ من العلماء المقصودين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]. وهذا هو العلم المنتسب لمحمد ﷺ ولأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

٣- فلنسأل أنفسنا، هل فعلاً إن ما نشهد عليه، نؤمن به حقاً؟ وهو حاضر عندنا بشكل يقيني ثابت، قد أورثنا الخشية من الله تعالى في القلب، أم لا؟

❖ الهدف من حصر الشهادة في مواضيع دون غيرها

ورد في مقطع الشهادة من زيارة الناحية المقدّسة: أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر والعدوان، وأطعت الله وما عصيته، وتمسّكت به وبحبله فأرضيته وخشيته، وراقبته... وجاهدت في الله حق الجهاد.

١- سورة فاطر، آية ٢٨.

وفي زيارة وارث ورد مقطع مشابه يقول: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وأطعت الله ورسوله حتى أتاك اليقين».

الملاحظ من خلال المقارنة بين المقطعين، أنهما متشابهان بورود النقاط الأساسية، كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. إلا أن الحج أو الصوم مثلاً لم يرد ذكرهما، ما يدل على أنّ المسألة ليست للتعداد، إنما المقصود منها شيء آخر. وهو الإشارة إلى طريقةٍ ما في فهم الإسلام. إضافة إلى أن زيارة الناحية أوردت بعض التفاصيل التي لم ترد في زيارة وارث، وهذا ما يميّزها ببعض الدلالات في مضامين الشهادة الواردة فيها، عبر ذكر نماذج لفهم النظام العام للإسلام المحمّدي الأصيل. والتي أراد من خلالها صاحب الزيارة الحجة المنتظر عجل الله فرجه تثبيت معتقد الموالي الزائر تجاه الأئمة الأطهار عليهم السلام، وبالخصوص تجاه الإمام الحسين عليه السلام. وإيداع هذا المعتقد لديه من أجل استرجاعه، عبر قطف ثماره يوم القيامة.

هذه النماذج لفهم النظام العام للإسلام، يمكن إدراجها على الشكل الآتي:

١- إقامة الصلاة في قول: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة...».

ما يميّز الصلاة عن غيرها أمران:

أولاً: أنها أكثر عبادة ترمز إلى العلاقة بين الفرد وربه، سواء أدّيت بطريقة فردية أو جماعية.

وثانياً: أن ورودها في القرآن الكريم مقرون غالبا - سبقاً أو لحوقا- بالتمكين في الأرض، كما في قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾**[1]، فالطرح إذاً، هو وجود استهداف مجتمع إسلامي

١- سورة الحج، آية ٤١.

منتشر، يراد له أن يعبد الله تعالى عبر إقامة الصلاة. وأنا أشهد أن الإمام الحسين عليه السلام عمل على ذلك.

٢- حفظ حقوق الله المالية في عبارة: «وآتيت الزكاة»

المال هو أحد الحرمات الثلاث الأكثر أهمية في الإسلام. وهي: حرمة الأعراض والأموال والأنفس. وبالتالي، فإن حفظ السياسة المالية أصل من الأصول التي ينبغي أن يتصدّى لها إمام كأبي عبد الله الحسين عليه السلام. وأنا أشهد أنه عمل على ذلك، أشهد أنه حفظ حرمة الله فيما يتعلق بالأرزاق والأموال.

البعض اعتبر أن كلمة الزكاة تعني النمو، فلا تختص بالمال فقط، بل إنّ العلم يزكو على الإنفاق، وكذلك زكاة الأبدان الصيام... إلخ. وبالتالي، فإن عبارة آتيت الزكاة تعني أنك السبب والواسطة لكل ما فيه نمو في الحياة، كالرزق والعلم وغير ذلك.

٣- حفظ حدود الله في قول: «وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر والعدوان»

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو فرض لحفظ حدود الباري عز وجل في المجتمع من أي فعل أو ممارسة غير سليمة. فالشهادة لله أنّ أبا عبد الله الحسين عليه السلام أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ليحفظ كيان المجتمع ويقيم حدود الله فيه.

ما يميّز زيارة الناحية أنها أضافت كلمة والعدوان بعد النهي عن المنكر، وذلك يشير إلى ضرورة محاربة التعدي من أي صنفٍ كان. ثم ختمت الفقرة بقول: وجاهدت في الله حق الجهاد. فهل إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعدوان هو أمر مختلف عن الجهاد؟

البعض وحّد بين المفهومين، باعتبار أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعدوان هو باب من أبواب الجهاد. ذلك أن حفظ حدود الله تعالى يمكن أن يتمّ بالقول والكلمة أو باليد عبر الجهاد. والبعض الآخر فصلهما. لكن بالعموم، يمكن إدراج أي عمل فيه تنمية للمجتمع كزرع شجرة أو إسداء نصيحة... أنه من أعمال الجهاد، لأن المراد منه حفظ كيان المجتمع في التزامه لحدود الباري عز وجل.

٤- حفظ ذات الإنسان وهداها

عبر نهج العصمة الإلهية المتمثّلة بنهج المعصوم، وتحديداً هنا الإمام الحسين عليه السلام. تقول الزيارة: وأطعت الله وما عصيته، وتمسّكت به وبحبله، فأرضيته وخشيته وراقبته، واستجبته، وسننت السنن، وأطفأت الفتن، ودعوت إلى الرشاد، وأوضحت السداد.

من أهم الشروط وأولاها في العلاقة مع الإمام الحسين عليه السلام بل مع أي إمام معصوم، وبالتحديد في زماننا مع قائم آل محمد عجل الله فرجه هو عنصر الهداية المتمثّل بطاعة الله وتربية النفس على ذلك.

وحسب الزيارة تمثلت الطاعة في الآتي:

أ) عدم المعصية لله عز وجل وما عصيته

وهذا من أهم مفاتيح التقوى. فيكفي لأن تكون تقياً أن تتجنّب المعصية، كبيرة كانت أم صغيرة. وبذلك تحقق القرب من الله تعالى، حتى ولو لم تقض ساعات طويلة في الأذكار. لأن تلك الأذكار، إذا ترافقت مع المعاصي، لا تزيدك إلا بعداً عن ساحة الرحمة الإلهية، فالأصل والأساس عدم المعصية. وبذلك تكون ملتزماً فعلياً بنهج الإمام الحسين عليه السلام وبعدها يمكن للأذكار أن تؤثر إيجاباً في نفسك.

ب) التمسك بالله وبحبله وتمسكت به وبحبله

حبل الله هو القرآن الكريم والعترة الطاهرة - بحسب الروايات- فقد تحدّث رسول الله محمد ﷺ عن حبل ممدود من السماء إلى الأرض وهو كتاب الله وعترتي أهل بيتي. هذا هو الطريق السليم الموصل إلى الباري عز وجل. لا يكفي التمسّك بالله فقط، إنما التمسّك بالحبل الممدود هو السبيل والواسطة، عندها تؤتي العبادة ثمارها، فتصبح الصلاة معراج روح المؤمن إلى الله تعالى، كما كان معراج الرسول الأكرم محمد ﷺ بالروح والجسد معاً إليه عز وجل.

فأنا أشهد بأنّ أبا عبد الله الحسين عليه السلام، ومن كان معه، هم ممن تمسَّك بالله وبحبله من القرآن الكريم، والعترة الطاهرة.

ج) تحقيق رضا الله وحفظ الخشية منه تعالى وأرضيته وخشيته

تحديد الهدف من العبادة أمر مهم للغاية، عليّ أن أعبد الله سبحانه لأكسب رضاه وحبه، لا لأحصل على لذائذ الجنة أو لخوفي من دخول النار. فتحقيق رضاه هو أسمى الأهداف وأشرفها ﴿**رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضُوا عَنهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه**﴾[1]. وطبيعي أنّ من مستلزمات ذلك الرضا دخول الجنة والبعد عن النار، إلا أنّ الهدف الأساس يجب أن يكون تحقيق رضاه جلّ وعلا، وحفظ الخشية منه. تلك الخشية التي يريد أئمتنا الأطهار عليهم السلام تربيتنا عليها هي أمر أسمى من الخوف.

رسول الله ﷺ يجيب سائلاً عن إقامته للصلاة رغم ضمانه الجنة، قائلاً: أفلا أكون عبداً شكوراً[2]. وأمير المؤمنين علي عليه السلام الذي يقتحم في الحروب، غير آبه بالسهام التي تنزل عليه كالمطر، كان إذا وقف للصلاة، اصفر لونه، وارتعدت فرائصه، وحين يسأل عن ذلك كان

١- سورة البيّنة، آية ٨.

٢- الري شهري: ، ميزان الحكمة، م.س، ج٤ص٢٢٢٣.

يجيب: «ألا تعلمون بين يدي من سأقف حين تأدية الصلاة»؟[1]. إذاً، المسألة ليست مجرّد خوف، إنما هي معرفة حق الوقار في النفس تجاه الباري عز وجل. فالخشية ليست أمراً سلبياً، بل هي أمر مبني على شدة العلاقة والحب والمعرفة بالله سبحانه وتعالى.

وأنا في الزيارة، أشهد أن أبا عبد الله عليه السلام عمل على تحقيق رضا الله تعالى، وأنه لم يكن يخاف من دخول نارٍ أو عدم دخول جنة، بل كان يخاف؛ خوف الخشية من الله؛ القائم على أساس الحب والمعرفة بالله عز وجل.

د) رقابة الله تعالى وراقبته

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أعبد الله كأنك تراه...»[2] هذا المستوى من العبادة يصدق على عصمة محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله ومن شايعها. فقد كانوا يعبدون الله ويرقبونه. أما إذا لم يستطع الفرد منّا الوصول إلى هذه المرتبة السامية فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك. فعليه الشعور بمراقبته تعالى له.

هذا مثال لتقريب الفكرة:

فرضاً أن سقف الغرفة التي أتواجد فيها يتصدّع شيئاً فشيئاً أمام عيني. من البديهي أن تصدر مني بعض ردات الفعل عند مراقبتي الدقيقة له، نتيجة خوفي من سقوطه على رأسي. أما إذا أخبرني أحدهم، بأن إمكانية وقوع السقف تكون بعد ساعة مثلاً، يصبح عندي اطمئنان بوقوعه، إلا أني لا أتابع حركة تصدّعه لحظة بلحظة، وإحساساً بإحساس.

١- المجلسي: « بحار الأنوار»م.س، ج٤٦، ص٧٤.

٢- م.ن، ج٢٥، ص٢٠٤.

كذلك الأمر بالنسبة للحديث، «أعبد الله كأنك تراه»؛ بمعنى أنّ ما عند الله من تجليات وألطاف وحضور... هو حاضر عندي أتحسّسه وأشعر به، أعاينه. فإنك إن لم تكن تراه. فإنه يراك. بمعنى أنه قد قيل لي: بأن الله يراقبني، وأنا آمنت بذلك، فلا أقع في الحرام في كثير من الموارد. لكن في الحالة الأولى، قطعاً لن أقع في حرام.

إذاً، إمكانية الوقوع في المعصية محكومة بحسب حضور الله وحقه وعظمته وجلاله في النفس، ومعرفة أنه يرقب الضمائر والسر والنجوى، وإذا وصلت هذه المعرفة إلى حدّ الاكتمال، وصل الإنسان إلى درجة العصمة.

من هنا كانت واحدة من تفسيرات معنى العصمة لا تقوم على أن الله قد أوجد هذا المعصوم، بحيث إنه لا يخطئ، بل إنّ الله حضر في قلبه ووجدانه وسرّه إلى المستوى الذي لا يمكن فيه إلا أن يكون منقاداً طائعاً، ملتزماً أمر ربه طالباً رضاه وحبه على الدوام.

بعض العرفاء حذف حرف الكاف في كأنك. بمعنى أن المعصومين عليهم السلام قد وصلوا إلى مرتبة عبادة الله عبادة عن رؤيا بحقائق الإيمان. وقد صرّح أمير المؤمنين عليه السلام بذلك قائلاً: «كيف أعبد رباً لم أره».

ر) الاستجابة لأمر الله «واستجبته»

كان الإمام الحسين عليه السلام، منذ بداية حياته الشريفة، مستجيباً لأمر الله سبحانه وتعالى، مع جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعد وفاته صلى الله عليه وآله، في عصر إمامة أبيه علي عليه السلام، حيث كان يخوض الحروب معه في سبيل الله. وكذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين وتسلّم أخيه الإمامة، استجاب لأمر ربه في التزامه بما أمره أخوه الحسن عليه السلام في صراعه مع معاوية. ثم

بعد استشهاد أخيه أيضاً، حينما تسلّم الإمامة، أمسك بالولاية على الأجساد والأرواح والأنفس والأموال، فحفظها وأدّى حق الله فيها، وفدى نفسه وأهله وأصحابه في واقعة الطَّف، استجابةً لأمر ربه سبحانه، وهذا سيبرز جلياً في سياق ما سيأتي.

ز) استنـان السنن واستننت السنن

من مصادر التشريع لدينا كشيعة قول الإمام المعصوم عليه السلام، كما قول رسول الله صلى الله عليه وآله. لأنه حينما ينطق، لا ينطق عن الهوى وإنما بتسديد وتأييد من الباري سبحانه. وعليه، فإنّ التزام قوله وفعله وتقريره هو أمر واجب في أعناقنا. وبالتالي، فإنّ أي حركة أو سلوك يقوم به عليه السلام يجب اعتباره سنة علينا الاقتداء بها.

أبو عبد الله عليه السلام التزم بما كان قد أقرّه الإمام الحسن عليه السلام من هدنة مع معاوية، لأن الظروف آنذاك كانت تحكم بذلك للحفاظ على الإسلام. لكن، حينما كان معاوية يبعث بالرسائل التي تتضمن تهديداً، كان الإمام عليه السلام يردّ عليها بالتهديد والوعيد أيضاً، في الدنيا والآخرة. فلم يكن يسكت عن قول الحق أبداً. وسنة قول الحق في وجه السلطان الجائر هي أعظم الجهاد عند الله سبحانه وتعالى.

بعد موت معاوية وتسلّم يزيد الخلافة، وهو الفاسق الفاجر.. أعلن أبو عبد الله عليه السلام تحوّله إلى مهاجم - في سبيل الله للحفاظ على الدين الإسلامي الحنيف - فضلاً عن كونه مدافعاً عنه. لأن المسلمين قد وصلوا إلى خطر تهديد أصل هويتهم الإسلامية، فقد سعى يزيد جاهداً لمحو الإسلام عبر محو ذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله، من خلال هتك حرمته الشريفة.

عندما كان يُسب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر، عمل أئمتنا على

الدفاع عن شخصه المبارك بشتى الوسائل السلمية، لأنهم كانوا يرون أنه سيأتي يوم وتنتهي فيه هذه المسألة. فلا وجود لخطر فعلي على الإسلام ووجوده. طالما أن ذكر النبي محمد ﷺ باقٍ.. وحفظ ذكر محمد ﷺ يستلزم بالضرورة حفظ أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد نرى بعض الأديان والاتجاهات يمدحون أمير المؤمنين عليه السلام في بلاغته وفصاحته وشجاعته، لكنهم إذا أرادوا إنهاء أمر الإسلام تراهم يصوّبون هجومهم باتجاه شخص رسول الله محمد ﷺ، محاولين بذلك انتهاك حرمته الشريفة. لأنه مع إنهاء ذكر النبي الأكرم ﷺ تنتهي كل حرمة للإسلام بما هو دين.

فعلى الدنيا السلام حينما يكون على الإسلام السلام بعد وجود يزيد وأمثاله. هذا الإعلان بالتحوّل هو سنّة يجب الاقتداء بها، ولا يمكن اعتبارها مجرّد حادثة وقعت في التاريخ ولن تتكرر، بل كلما حصل تهديد بهذه الخطورة، يجب الانتفاض والثورة للحفاظ على الإسلام والمسلمين. إنها سنّة ينبغي أن تبقى حاضرة فينا، نحيا بها ونعايشها.

هنا قد يرد تساؤل: يحقّ للمعصوم أن يستنّ سنّة، أو يحدّد حكم الله بأمر معين، فهل يحق لغيره فعل ذلك؟

صحيح أن المعصوم يمثّل المرجعية الأصل في تحديد الحكم واستنان السنن، لكنه لا يحتكر ذلك لنفسه. بمعنى أنه قد صرّح عليه السلام بوجوب التفكير في حكم الله تعالى في الموارد التي قد تفاجئنا حال غيبته عنا وبالتالي منشأ حركة الاجتهاد هو هذا التصدي من المعصوم لشؤون الحياة، وجعله هذا الأمر أمانة في أعناقنا وأذهاننا، لنتحمّل مسؤولية استنان السنن في كيفية إحياء أمر محمد وآل محمد ﷺ، بإبداع فني خلّاق، يخدم الدين ويحافظ على أسسه الثابتة ويصبّ في مصلحته.

وهذا لا يعتبر بدعة[1]، بل هو ابتكار وتطوير الأساليب خدمةً لما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام ومن كان قبله من المعصومين ومن جاء بعده منهم عليهم السلام.

هـ) إطفاء الفتن، وأطفأت الفتن

انتفض أبو عبد الله الحسين عليه السلام وأطفأ الفتن بتضحياته، بجلده في الجهاد، بدمه الذي قدّمه قرباناً لله عز وجل في سبيل الحفاظ على دين جده محمد صلى الله عليه وآله وذكره. وبذلك مهّد لمرحلة جديدة تعتبر من أعظم مراحل الإسلام وهي مرحلة الأئمة الثلاثة بعده عليه السلام.

بدأت هذه المرحلة مع الإمام زين العابدين عليه السلام، حينما كان الناس يتعاملون مع الدين كأنه لعق على ألسنتهم، يتمسّكون به ما درّت معايشهم، خالٍ من أي روحٍ أو معنى. فعمل الإمام عليه السلام على تصويب المعتقد الديني عبر إعادة رونق البعد الروحي والمعنوي للقرآن الكريم من خلال أدعيته الشريفة المنصوصة عنه عليه السلام. ثمّ أكمل الإمام الباقر عليه السلام المسيرة، فنشر الروايات الصحيحة التي وازنت بين الجانب الفقهي وجانب التخلّق بأخلاق الإسلام والدين، وبذلك بنى مجتمعاً لديه قابلية إقامة الثورة في عهد الإمام الصادق عليه السلام. وبعض المرويات أشارت إلى إمكانية جعل شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله حينها من أهل الحكم في الأرض، لولا أنهم لم يحفظوا السر الذي كان آنذاك، والذي ضيّعوا من خلال هتكهم للسر ما ضيّعوا..

و) الدعوة إلى الرشاد، ودعوت إلى الرشاد

ثورة الإمام الحسين عليه السلام ليست مغامرة كما يمكن للبعض أن يدّعي، حتى ولو أعطاها طابع القدسية كونها صادرة عن المعصوم،

1- البدعة: هي الإتيان بأمر لا يرتضيه الدين الإسلامي، وبالتالي يجب محاربتها لاعتبارها فتنة يجب إطفاؤها.

وإنما هي عين الرشاد. ذلك أن الأصل في النظرة إلى الحياة الدنيا، هو أنها تشاكل وتشابه الآخرة. وهذه النظرة ناتجة عن علم ومعرفة لا عن عبثية أو مغامرة. وهذا واضح في الزيارة المقدّسة: «ثم اقتضاك العلم للإنكار...».

حين وجد الإمام الحسين عليه السلام أن الدنيا ستنقلب إلى دنيا يزيد، كان من الرشد أن يرفضها ويسعى إلى تغييرها. لأن الآخرة حاضرة عنده عليه السلام بكل تفاصيلها، وليست غيباً عنه. فكما أن الملك في الآخرة لله تعالى، والصلحاء يرثون أرضها، يتنعّمون فيها، كذلك في الدنيا، ينبغي أن يكون الحكم فيها لله تعالى، حيث يرث الصالحون الأرض، يعيشون فيها حياةً رغيدة.

هذا هو عين الرشاد، أن تحضر الآخرة عندنا أثناء عيشنا في هذه الحياة الدنيا حضوراً فعلياً ينعكس على قراراتنا وأفعالنا. هكذا يجب أن تحصل حركة الرسالة في الحياة، وهذا ما علّمنا إياه الإمام الحسين عليه السلام خلال ثورته المباركة.

ي) إيضاح سبل السداد، وأوضحت سبل السداد

سبل السداد هي مجموع الأمور التي مرّت خلال الشهادة. فمن الهداية النفسية المتمثّلة بالطاعة لله تعالى وعدم معصيته والتمسّك به وبحبله... إلى إقامة الصلاة في كل الأرض، بما فيها من رمزية إلى العبادة الفردية الخالصة لوجهه تعالى، مضافاً إلى حفظ حقوق الله المالية بما يرضيه وحفظ حدوده في تشكيل مجتمع إسلامي يعيش تحت رعاية حكمه عز وجل. كل هذه الأمور تعبّر عن سفير الله فينا، وهو الإمام المعصوم عليه السلام. ودوره الكامن في إخراجنا من الظلمات إلى النور.

حين يقف الزائر الموالي للشهادة بكل تفاصيلها فكأنه يقول: أشهد أنك أنت الإمام الحق، أدّيت حق الإمامة التي أولاك الله إياها وأعطاك إياها كأمانة حفظتها في الحياة وبين الناس.

بعض وظائفه الشريفة

دور الإمام الحسين عليه السلام، كما هو واضح في الكثير من الزيارات الشريفة، هو حفظ واستكمال حركة الأنبياء والأئمة عليهم السلام من قبله، ودفع هذه الحركة عند الموالي باتجاه صاحب الأمر عليه السلام الذي سيقيم دولة العدل في الأرض.إذاً، يمكن إدراج بعض وظائفه الشريفة عبر الآتي:

١- متابعة وحفظ واستكمال حركة الأنبياء والرسل ومن سبقه من الأئمة الأطهار عليهم السلام.

٢- رايته التي يحملها هي راية إقامة حكم الدين ونصرة الحق، والحفاظ على الإسلام بأي شكل من الأشكال.

٣- نشر الهدى والعدل بين الناس.

٤- مواجهة الطغيان والطغاة، ومكافحة أهل الفسق، وزجر أي عبث، والأخذ من الظالم، بالقول اللائق إن أمكن، وإلا فحق الاستجابة لأمر الله تعالى أن يقوم بالسيف، ولا يخاف في الله لومة لائم، مقدّماً دمه وروحه في سبيل ذلك.

تقول الزيارة في هذا السياق:

«كنت للرسول ولداً، وللقرآن سنداً، وللأمة عضداً، وفي الطاعة مجتهداً، حافظاً للعهد والميثاق، تنكر المنكر بقلبك ولسانك... ثم اقتضاك العلم للإنكار، ولزمك أن تجاهد الفجّار.. ودعوت إلى الله

بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمرت بإقامة الحدود والطاعة للمعبود، ونهيت عن الخبائث والطغيان وواجهوك بالظلم والعدوان... وبدأوك بالحرب، فثبتّ للطعن والضرب، وطحنت جنود الفجّار، مجاهداً بذي الفقار كأنك علي المختار، فلمّا رأوك ثابت الجأش، غير خائفٍ، ولا خاشٍ نصبوا لك غوائل مكرهم، وقاتلوك بكيدهم وشرّهم... وأنت مقدم في الهبوات ومحتمل للأذيّات، قد عجبت من صبرك ملائكة السماوات... فأحدقوا بك من كل الجهات، وأثخنوك بالجراح... ولم يبق لك ناصر وأنت محتسب صابر... حتى نكّسوك عن جوادك، فهويت إلى الأرض جريحاً.. قد رشح للموت جبينك... قد سكنت حواسّك، وخفيت أنفاسك... ورفع على القناة رأسك...».

جمل وعبارات تشرح لنا حال أبي عبد الله الحسين عليه السلام في ثباته بموقفه، يوم أراد أن يواجه عن علمٍ ما واجه، من أجل إثبات الحق والثبات عليه، مستناً لنا هذه السنّة الشريفة.

الفصل الرابع

الدعـــاء



الدعــاء

❖ الدعــاء قــرآن صاعـــد

القرآن يمثّل وحي الله عز وجل، هو كلام إلهي توجّه به سبحانه إلى الناس عبر نبيّنا محمد ﷺ ليبيّن لهم حقائق الكون، والوجود والحياة والموت... إلخ. ويسلك بهم درب الهداية، والسبيل القويم، المعبّر عنه في القرآن الكريم بالصراط المستقيم.

الإنسان الذي لم يصدّق بالكلام الإلهي فقد كذّب به وضلّ عن السبيل القويم، وهذا الضلال ناتج عن كفره أو فسقه. وأمّا من أسلم له، وصدّق واعتقد به، فقد سلك درب الهداية، والصراط المستقيم. وبالتالي، فإنّ عليه أن يستجيب لربّه، ويعلن بين يديه اهتداءه والتزامه بهذا الصراط من خلال الدعاء.

إذاً، الدعاء هو عبارة عن استجابة للقرآن الكريم -الكتاب النازل- لكن بشكل صاعد، وكأنّه قرآن صاعد. وقد قيل في حق الصحيفة

السجّادية، للإمام زين العابدين عليه السلام، والتي تعتبر كتاب الدعاء المركزي عند الشيعة، بأنها القرآن الصاعد. لأن مضامينها هي روح ما في القرآن الكريم وقد صيغ بصيغة الدعاء..

وعليه، يجب أن يكون التعبير عن هذه الاستجابة - أي الدعاء - وفق ما يريده الله عز وجل، ومتناسباً مع تعاليم الإسلام وهدايته. فليس أي كلام أو أية صياغة كانت، تفي بهذا الغرض. بل لا بدّ من توفر أمور معيّنة تعبّر عن مسألة الحمد، التي تمثّل شكران الأنعم الإلهية، من هداية والتزام وإيمان، وهذا أمر مركزي في أية مناجاة. وقد حثّ الإسلام على الدعاء، بما يمثّل حالة فقر وحاجة الإنسان الضعيف، الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، إلى الله الخالق العظيم متوجهاً إليه بنية صادقة وانقطاع خالص، بحيث يكون قلبه وسره لا يلحظ إلا وجهه الكريم، راجياً الاستجابة مؤمنا موقناً بها.

وحين يذنب المسلم يستغفر ربه ويسأله التوبة مباشرة، بخلاف بعض الديانات التي يمكن أن تجعل من بعض الناس وسطاء بين الناس وربهم..

بينما في الإسلام، لا يمكن لأحد أن يغني عن أحد شيئاً، وهذا وارد في الكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة. ففي رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله - إن صح سندها - أنه قال للسيدة فاطمة عليها السلام: «إنّي لا أغني عنك من الله شيئاً»[1]. مع أنّ مقامها الشريف أقدس من أن يخاطبها رسول الله بمثل هذا الخطاب. إلا أنّه عموماً، هو درس للأمة بأنّ على الإنسان أن يسعى بنفسه إلى إقامة علاقة تقرّبٍ مع ربه وخالقه ومعبوده.

١- الطبراني، سليمان بن أحمد: «المعجم الأوسط» تحقيق إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، ج٨، ص٢٢٨.

هنا يأتي سؤال: هل بناء هذه العلاقة يستلزم وجود وسطاء؟ فإن كان الرد بالسلب، كما تدّعي بعض الأوساط الإسلامية[1]، فمن أين أتت فكرة الوساطة تلك؟ وإن كان الرد بالإيجاب، ما الحاجة إليها؟ وعلى أي أساس تكون؟ ألا تمثّل شركاً بالله تعالى؟

نعم، لو كان الذهاب إلى قبر النبي- أو أي معصوم -بقصد أنّه يغنينا عن الباري عز وجل، هذا يعتبر شركاً وكفراً. لكنه لا يعني أبداً نفي أية وساطة عنه. وحتى يتضح مفهوم الوساطة والحاجة إليها، لا بدّ من دراسة بعض الأدعية في الزيارات عند الشيعة، ومعرفة سبب تمسّكهم فيها بالنبي محمد ﷺ وآل بيته الأطهار عليهم السلام.

الحاجة إلى الوسيط

ورد في زيارة للنبي ﷺ: اللهم إنك قلت لنبيك محمد ﷺ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[2] هذه الآية الشريفة تخاطب رسول الله محمد ﷺ قائلة له: إنه حينما يظلم إنسان ما نفسه بارتكاب ذنب، عليه أن يذهب إليك، ويستغفر الله عندك، وتدعو له حتى يستجاب طلبه للمغفرة والتوبة.

تكمل الزيارة: «ولم أحضر زمان رسولك عليه وآله السلام. اللهم وقد زرته راغباً، تائباً من سيء عملي ومستغفراً لك من ذنوبي ومقراً لك بها. وأنت أعلم بها مني، ومتوجهاً إليك بنبيك نبي الرحمة صلواتك عليه وآله، فاجعلني اللهم بمحمد وأهل بيته عندك وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين»[3].

١- مذهب الوهابية مثلاً، يحرّم التمسّك بقفص النبي الأكرم ﷺ أو أي معصوم حال الدعاء باعتباره شرك.

٢- سورة النساء، آية ٦٤.

١- المجلسي: «بحار...» م.س، ج٩٧، ص١٨٦.

إذاً، الذهاب إلى ضريحه المقدّس لزيارته ﷺ هو بهدف التوبة إلى الله عز وجل. فمن غير المعقول ولا المقبول أن أحرم من تلك النعمة الإلهية والرحمة الواسعة لأني ولدت في زمن غير زمان حياته الشريفة. وما توجهي إلى زيارة قبره الشريف أو قبر أي معصوم إلا لاعتقادي بأنه حي يرزق، يسمعني ويراني أتوسّل إلى الباري وأطلب منه ﷺ الشفاعة لي عنده، مع ثقتي ورجائي بأن يستجيب لطلبي.

تكمل الزيارة لتؤكّد على هذا المعنى: يا محمد يا رسول الله بأبي أنت وأمي يا نبي الله يا سيد خلق الله إني أتوجه بك إلى الله ربك وربي ليغفر لي ذنوبي فنعم المسؤول المولى ربي ونعم الشفيع أنت يا محمد[1].

وفي زيارة أخرى له ﷺ: «السلام عليك أيها السفير بين الله وخلقه. وأيضاً في زيارة للإمام الحسين عليه السلام:«اللهم إني توجهت إليك بابن رسولك وحجتك وأمينك»[2].

خلاصة القول، إننا أخذنا ثقافتنا -كشيعة- من القرآن الكريم الذي جعل وساطة محمد وآل محمد ﷺ ضمن النظام الإلهي للمغفرة كما هو واضح من الآية الكريمة. فلا ينبغي التوقف عند الوسيط والاكتفاء به دون الباري عز وجل، لأنّ ذلك يكون شركاً. كذلك، لا ينبغي التقليل من أهمية دور وقداسة وشفاعة محمد وآل محمد ﷺ، وتأثير ذلك على حياتنا المعنوية والروحية، وعلى أصل مقبولية عباداتنا وعلاقتنا بربنا عز وجل.

❖ دور الرسول الأكـرم ﷺ وتأثيـره

ورد في زيارة أخرى للنبي محمد ﷺ، أثناء توجهنا إلى الله عز وجل،

١- المجلسي: «بحار...» م.س، ج٩٧، ص١٨٦.

٢- م.ن، ج٩٧، ص ١٨٧ .

نخاطبه تعالى واصفين نبيه الكريم بالقول: حبيبك وصفيّك وخاصتك وصفوتك وخيرتك من خلقك، اللهم أعطه الدرجة الرفيعة وآته الوسيلة من الجنة، وابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأوّلون والآخرون[1].

من خلال قراءة هذا المقطع نلحظ الآتي:

١) أن نبينا محمد ﷺ -وآله الأطهار- وسيلة الجنة. ونحن ندعو الله بذلك لتأكيده في نفوسنا، آملين أن يأخذ ﷺ بأيدينا **﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾**[2] وندخل الجنة بواسطته. لأننا أمّة تنتسب وتعتقد بإمامة محمد وآل محمد ﷺ.

٢) أنه صاحب المقام المحمود، ويأتي الدعاء لترسيخ هذا المفهوم لدينا وابعثه مقاماً محموداً. والكثير من الروايات تحدّثت عن أنّ الله تعالى يخاطب نبيه يوم القيامة قائلاً له: تمنّ واشفع تشفّع[3]. وأنّه يشفع لأمّته وبقية الأمم إلى درجة أنّ إبليس عليه اللعنة تشرئبّ عنقه من بطنان جهنم رافعاً صوته بالقول: الشفاعة الشفاعة يا رسول الله[4].

٣) الغبطة التي يغبطه بها الأولون والآخرون ستناله بل وتنالنا أيضاً عليه، كونه نبي أمتنا ﷺ، آمنّا به وصدّقناه.

وعليه، فإنه لا يصح للزائر إلا أن يغتنم فرصة التعبير عن حاجته لله تعالى، ورغبته بلقائه، أثناء تأديته للزيارة مع كل ما يحمله في قلبه من حب وقداسة وتعظيم للمعصوم عليه السلام.

١- الشيخ البهائي: « مؤسسة انتشارات فرهاني»، طهران، ص١٦٨.

٢- سورة الإسراء، آية ٧١.

٣- المجلسي «بحارم...».س، ج١، ص١٠٧.

٤- عبد الحسين الأميني:«الغدير»، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٧ ه، ج٥، ص١٢٩.

❖ كيفيــة الدعـــاء

حتى يكون الدعاء والاستجابة بالمستوى المطلوب، لا بدّ من الالتفات إلى نقاط يمكن استخلاصها من روايات عديدة قد أكّدت عليها. هذه النقاط هي:

١) الدعـــاء بالمأثـــور:

أي الدعاء بما ورد عن المعصومين عليهم السلام، مما امتلأت به كتب الأدعية لدينا. أو ما ورد من آيات القرآن الكريم المتضمّنة لبعض صنوف الأدعية، كالآيات الأخيرة من سورة البقرة المباركة وغيرها الكثير.

٢) ذكــر اللــه عــز وجــل في كــل دعـــاء:

يجب أن يتخلّل الدعاء تعظيم وتسبيح وتحميد لله عز وجل. لذا نرى الكثير من الأدعية المأثورة أنّ في مضامينها ذكره تعالى بأسمائه وصفاته مثل: «اللهم إنّي أسألك باسمك يا عظيم يا حليم يا كريم...» وكما مرّ ذكره بأنّ الحمد هو من الأمور المركزية في أي دعاء، فأحمده على جميع نعمه وآلائه.

٣) ذكــر الصــلاة علــى محمــد وآل محمــد:

هذا الذكر هو في حدّ ذاته دعاء لانعطاف الله تعالى على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآله الأطهار بالرحمة تعظيماً لشأنهم. وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنه دعاء مستجاب لا يردّ، كما ورد أنه سبحانه يستحيي أن يستجيب هذا الدعاء - الصلاة- ولا يستجيب ما اقترن به من الأدعية.
إذاً، اقتران الدعاء بالصلاة على محمد وآل محمد وبما تمثّل من استعانة واستشفاع بهم وبذكرهم عليهم السلام فيه ضمان القبول والاستجابة. لذلك نرى الكثير من الأدعية المباركة تبدأ، ويتخلّل مقاطعها، وتنتهي بذكر الصلاة على محمد وآل محمد.

٤) طلب لـذة المنـاجـاة:

بعض الأدعية المأثورة فيها طلب من العبد أن يفتح الله عليه باب المناجاة وكأنه يقول: اللهم ائذن لي أن أناجيك، آنسني بدعائك، أشعرني بلذة عبادتك.

يقول بعض العرفاء: إنه إذا أراد الداعي معرفة مدى قبول واستجابة دعائه، فليستفتِ قلبه، هل أحسّ بأنس خاص، وطمأنينة أثلجت فؤاده، أم لا؟ إنّ حالة الطمأنينة والأنس تدل على المقبولية.

هذا التأثير في النفس أثناء العبادة، هو أمر مطلوب. لذا، فإن الكثير من الأدعية وخصوصاً في أدعية السحر وبعض أدعية شهر رمضان المبارك قد ورد فيها الطلب من الله عز وجل أن لا يبعد الداعي عن ساحة أنسه، وأن لا يحرمه من لذة العبادة والمناجاة.

٥) السـؤال عـن كـل أمـر فيـه تقرّب لله عـز وجـل:

أن يسأل العبد ربه عن كل ما يقرّب إليه تعالى سواء كان يتعلّق بالدنيا أو بالآخرة. كالدعاء لطلب الرزق أو طول العمر مثلاً، قد يُخيّل للبعض أن فيهما حباً للدنيا. لكن، بعد التدقيق يتضح أن الدعاء للرزق الحلال، فيه أجر وثواب في الآخرة، وأنّ طول العمر هو فرصة للإنسان لبناء حياته الأخروية، إذ بانتهاء عمره يخسر فرصته الوحيدة للتزوّد من الحسنات، ورفع الدرجات. لذا، يطلب طول العمر طالما أن فيه طاعة للباري عز وجل باعتباره فرصة ومكسباً لا يمكن تعويضه بعد الموت.

❖ حـال الـداعـي

يخاطبنا الإمام الخميني قدس سره في مقطع من كتاب الآداب المعنوية

للصلاة موضحاً حال الداعي، فيقول:

«يا عزيزي، إن الرحمن قد خمّر[1] فطرتك بنور المعرفة، ونار العشق، وأيّدها بأنوار كالأنبياء وعشّاق كالأولياء. فلا تطفئ هذه النار بتراب الدنيا الدنيّة ورمادها، ولا تكدّر ذاك النور بكدورة التوجه إلى الدنيا وظلمتها وهي دار الغربة. فإنك إذا توجهت إلى الوطن الأصلي وطلبت الانقطاع إلى الحق من الحق[2]، وعرضت عليه حال هجرانك وحرمانك، بقلبٍ موجعٍ، وأظهرت حال مسكنتك واضطرارك ووجعك، فيدركك الإمداد الغيبي، وتساعد مساعدة باطنيّة وتجبر النقائص، إذ من عادته الإحسان ومن شيمته التفضّل»[3].

إذاً، فالله عز وجل زوّدنا بالأسباب -الخميرة- التي تؤهلنا للمعرفة، وما علينا إلا السعي نحو تحصيلها للتقرّب إليه سبحانه. ثم أيّدها بنار العشق. فليترك الإنسان تلك النار مؤجّجة، ولا يخمدها بملذات الدنيا الآنية. وليسمح لذلك النور الإلهي أن يشعشع في أنحاء نفسه، عبر التوجّه الخالص والانقطاع الكلي لله عز وجل الوطن الأصلي ولتكن حاله حال المضطر المردّد **﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾**[4] وقلبه قلب الموجع المتلهّف، ولن يخيّب الله دعاءه وهو القائل في الحديث القدسي: أنا عند المنكسرة قلوبهم. وقديم الإحسان لا يردّ طالباً.

والأدعية في الزيارات المأثورة عن أئمتنا الأطهار، قدّمت لنا نماذج رائعة في كيفية الدعاء وحال الداعي المستشفع بمحمد وآله الأطهار عليهم السلام لضمان القبول.

١- الخميرة: مادة توضع في العجين. تكون سبباً في تحقيق الهدف من العجن بأن يصبح جاهزاً للخبز.

٢- كدعاء: «اللهم إني هارب منك إليك» من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام.

٣- الإمام الخميني قدس سره الآداب المعنوية للصلاة.

٤- سورة النمل، آية ٦٢.

مـن هـذه *النمـاذج* نـذكـر:

١) **مقطعاً من زيـارة ليلـة عـاشـوراء،** يقـول الـداعي فيـه:

«فأسأل الله الذي أكرمني بمعرفتكم ومعرفة أوليائكم، ورزقني البراءة من أعدائكم، أن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة». لقد ابتدأ الدعاء بذكر العطايا الإلهية لحمد الله تعالى عليها. ثمّ بدأ بالترقّي في الطلب عبر قول:

«وأسأله أن يبلّغني المقام المحمود الذي لكم عند الله» فهم عليهم السلام في ذلك المقام المحمود يشفعون للخلائق. وبما أنّي ملتزم بهم، أطلب من الله عز وجل أن يجعلني معهم، أشفع كما يشفعون. يكمل الدعاء:

«وأن يرزقني طلب ثاري مع إمام هدىً ظاهر ناطق بالحق منكم». هنا، الدعاء فيه حركة للمستقبل، بطلب إحقاق الحق، وإزهاق الباطل. كما أنّ فيه تأكيداً على أنّ الولاية الوحيدة إنما هي لله تعالى بما هي تتمثّل برسوله محمد صلى الله عليه وآله وآله الأطهار عليهم السلام. ثم يختم هذا المقطع من الدعاء بالقول:«اللهم اجعل محياي محيا محمد وآل محمد، ومماتي ممات محمد وآل محمد». وهذا طلب واضح بأن يكون الداعي على سيرتهم في الدنيا والآخرة، وكأنما يطلب أن يجعله الله من أهل العصمة. صحيح أنّه لم يخلق معصوماً، لكن له في رسول الله أسوة حسنة.

إذاً، ينبغي أن يكون الطموح في الدعاء هو الوصول إلى مستوى العصمة تأسّياً بالرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وآل بيته الأطهار عليهم السلام.

٢) **من زيارة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم مولد النبي محمد صلى الله عليه وآله**، يتوجّه الداعي إلى الله قائلاً:

«اللهمّ إنّك تسمع كلامي، وتشهد مقامي. ثم يتوجه إلى الإمام علي عليه السلام المزار قائلاً: وأشهد لك يا ولي الله بالبلاغ والأداء، يا مولاي يا حجة الله، إنّ بيني وبين الله عز وجل ذنوباً قد أثقلت ظهري، ومنعتني من الرقاد وذكرها يقلقل أحشائي، وقد هربت إلى الله عز وجل وإليك. فبحق من ائتمنك على سرّه، واسترعاك أمر خلقه وقرن طاعتك بطاعته، وموالاتك بموالاته، كن لي إلى الله شفيعاً، ومن النار مجيراً، وعلى الدهر ظهيراً، فاجعلني يا مولاي من همك، وأدخلني في حزبك».

في هذا الدعاء، أشكو بقلب موجع ذنوبي وأخطائي التي تراكمت على ظهري، بحيث إنّي لم أعد أحتملها. فأهرب إلى الله عز وجل وإلى أمير المؤمنين منها ومن تبعاتها، وكلّي ثقة بأنه لن يصدّني. وكيف يفعل ذلك؟ وهو الذي كان يرفض طوال عمره الشريف المبيت في حالة شبع، مع الاحتمال الظنّي بأن هناك أحداً ما - في بلد ما- قد بات جائعاً.

أنا لا أقول له اغفر لي، بل أطلب منه مساعدتي، أستحلفه بحق ربه الذي جعله أميناً على سرّه. وإماماً على خلقه، بأن يشفع لي في مغفرة ذنوبي عند الله حتى لا أدخل النار بها. كما أطلب منه أن يعينني على الدهر، بما فيه من نوائب وبلايا في الزمن الصعب. إذ أنّ شفاعته لا تقتصر فقط في القبر ويوم المحشر، بل إنّ ولايته عليه السلام تمتد إلى كل أمر من الأمور المتعلّقة بنا. بحيث أني أستطيع الطلب منه أن يدخلني في همه ووجدانه، في وجده وانشغالاته. أطلب منه أن أكون بالكامل عنده، أضع كل تفاصيل حياتي تحت ولايته وبين يديه، وقلبي مطمئن بأنّي وضعتها في المكان المناسب.

٣) **من زيارة مطلقة للإمام الحسين عليه السلام** يقسم الداعي على الله تعالى بأشدّ الأمور قائلاً:

«اللهمّ إني أقسم عليك بنبيّك المعصوم وبحكمك المحتوم... أن تكشف ما بي من الغموم، وتصرف عني شرّ القدر المحتوم، وتجيرني من النار ذات السّموم. اللهم جلّلني بنعمتك، ورضّني بقسمك، وتغمّدني بجودك وكرمك... اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد، واقبل توبتي وارحم عبرتي، وأقلني عثرتي، ونفّس كربتي، واغفر لي خطيئتي، وأصلح لي في ذريتي.

اللهم لا تدع لي في هذا المشهد المعظّم، والمحلّ المكرّم ذنباً إلا غفرته، ولا عيباً إلا سترته، ولا غماً إلا كشفته، ولا رزقاً إلا بسطته، ولا جاهاً إلا عمّرته (أطلب طول مدّته كي لا أذل)، ولا فساداً إلا أصلحته، ولا أملاً إلا بلّغته، ولا دعاءً إلا أجبته، ولا مضيقاً إلا فرّجته، ولا شملاً إلا جمعته، ولا أمراً إلا أتممته، ولا مالاً إلا أكثرته، ولا خلقاً إلا حسّنته، ولا إنفاقاً إلا أخلفته، ولا حالاً إلا عمّرته، ولا حسوداً إلا قمعته، ولا عدواً إلا أرديته، ولا شراً إلا كفيته، ولا مرضاً إلا شفيته، ولا بعيداً إلا أدنيته، ولا شعثاً إلا لمته، ولا سؤالاً إلا أعطيته. اللهمّ إني أسألك خير العاجلة وثواب الآجلة».

الملاحظ، أنّ كلّ ما طلب في الدعاء من أمور هي تتعلق بحياتنا اليومية، من ستر العيب وكشف الغم وبسط الرزق... ثم في الختام أسأله تعالى الخير في كل ما طلبته، هذا الخير الذي أحصل عليه في العاجلة أي الدنيا، وفي نفس الوقت يخلف لي ثواباً في الآجلة أي الآخرة.

٤) دعاء من زيارة العباس عليه السلام:

«فأسألك أن تصلي على محمد وآله الطاهرين، وأن تجعل رزقي بهم داراً وعيشي بهم قاراً، وزيارتي بهم مقبولة، وحياتي بهم طيّبة، وأدرجني أدراج المكرمين، واجعلني ممن ينقلب من زيارة مشاهد

أحبّائك مفلحاً منجحاً، قد استوجب غفران الذنوب.إذاً، طلب الموالي ليس فقط مجرّد الزيارة، بل أن يكون آل البيت عليهم السلام هم سرّ رزقه الدارّ، واستقرار عيشه وطيب حياته، وغفران ذنبه.

٥) دعاء من زيارة الإمام علي الرضا عليه السلام، فيه بعض المعطيات الجديدة:

«اللهمّ إنّ هذا مشهد، لا يرجو من فاتته فيه رحمتك أن ينالها في غيره، ولا أحد أشقى من امرئ قد قصد مؤمّلاً فآب عنه خائباً. بمعنى أنّ الذي لا ينال الرحمة الإلهية هنا في هذا المكان المقدّس، فإنه لن ينالها في أي مكان، لأنها تنزل هنا بلا شك، وحرمانه منها هنا دليل عدم استحقاقه لها.

يكمل الدعاء:«اللهم إني أعوذ بك من شرّ الإياب، ومن خيبة المنقلب، والمناقشة عند الحساب. شرّ الإياب أي يوم الرجوع إلى الله عز وجل للحساب، والمصيبة التي ستلاقينا حين المناقشة، والأسئلة التي ستطرح علينا... كلّ ذلك حلّه يكون بالانقطاع إلى الله عز وجل في الدعاء وحصول تمام الاستجابة حين دخول مشهد من مشاهد أئمتنا الأطهار عليهم السلام والاستشفاع واللواذ بهم. قبل إتمام ذكر الدعاء، هناك أمر لا بدّ من الالتفات إليه وهو أنه أحياناً يطلب الدّاعي العفو من الله تعالى معترفاً بأنه لا يستحقه، لكنه مع ذلك يرجوه ويخشى من عدم الإجابة. هذا نمط من الدعاء وهو مطلوب.

لكن، أحياناً أخرى يناجي العبد ربه بدعاءٍ فيه نوع من المحاججة، مع الحفاظ على الخشوع والتذلل. كأن يقول له: يا رب أنت قلت أدعوني أستجب لكم، وأنا الآن أدعوك، ويبقى عليك الإجابة. أنت يا رب، طلبت أن أعفو عمن ظلمني، وقد ظلمت نفسي فاعف عني فإنك أولى بذلك

مني[1]. هناك جرأة في الطلب، وليس تجرّؤ. وهذه الجرأة نابعة من قلب محب وفي، حاله كما وصف الشاعر في شطر من بيته: إذا عرف الحبيب مكانه فتدلّل. وهي ناتجة عن معرفة الإنسان بسعة رحمة حبيبه، ووفائه بما وعد.

يكمل الدعاء: «وحاشاك يا رب، أن تقرن طاعة وليّك بطاعتك وموالاته بموالاتك، ومعصيته بمعصيتك، ثم تؤيس زائره، والمتحمّل من بعد البلاد إلى قبره. هنا، يوجد نوع من المطالبة بما وعد الله عز وجل، وكأنّ الداعي يقول: يا رب أنت الذي قلت أن من يطيع هذا الإمام فكأنما أطاعني، وأنت قلت: إن من يواليه فهو يواليني، ومن يعصيه فهو يعصيني. وأنا جئت إليه بكل صنوف الحب والعشق والولاء والطاعة. فكيف آتي إليه بهذه الحال، ثمّ تخرجني من عنده خائباً! حاشاك، جلّ شأنك عن فعل ذلك. لذا يقول بكل جرأة وعزّتك يا رب، لا ينعقد على ذلك ضميري، إذ كانت القلوب إليك بالجميل تشير». فأنت الجميل وكل الجمال، ولا يصدر عنك إلا ما هو جميل وما فيه رحمة.

حسن الظن هذا قد يكون سبباً لنجاة العبد وفوزه بمرضاة ربه عز وجل، لأنه ورد في الحديث: «أنا عند حسن ظن عبدي بي». ورتب الجنة بحسب حسن ظن العباد بالله تعالى، على بعض الروايات.

كلّ هذه المقاطع من الأدعية الواردة في الزيارات المأثورة، وغيرها الكثير، لا مجال لسرده، تربّي الموالي أن يدعو الله عز وجل عابداً متقرّباً محباً له عز وجل. ليس مجرّد خائف، بل تعلّمه عبادة الشكر والحب والمعرفة بالله سبحانه وبأوليائه الذين يمثلون لطفه، والموالي حينما يدعوه تعالى يدعوه مستشفعاً بهم، لاجئاً إلى ركن وثيق أولاه

١- من مضمون ما ورد في دعاء السحر لأبي حمزة الثمالي.

إياهم. فكل الانقطاع في الدعاء إلى الله عز وجل، والأمر المركزي فيه هو ذكر محامده عز وجل ومن أهم تلك المحامد لطف ولاية محمد وآل محمد ﷺ.

اللهم فبحق محمد وآل محمد اجعل حبهم هو كل خلجة في قلوبنا، اللهم اجعله أنفاسنا التي نحيا بها ونتقرّب إليك بها. إنك خير من تجيب الدعاء.

❖ الدعاء في زيارة الناحية المقدّسة

يقول الزائر في مطلع الدعاء: «اللهم فبحرمة هذا المكان المنيف» يدعو بكلمة «اللهم» التي تعني يا الله، بعدما وصل إلى أقصى مراحل الزخم النفسي في الجانب المعنوي الذي حصل عليه.

لفظ الجلالة مقدّس، لأنه اسم العلم الخاص بالذات المقدّسة، وهو يحمل كل الأسماء والصفات الإلهية[1]. فعندما أقول اللهم فكأنما أقول: يا الله، أنا أناديك بكل اسم أو صفة من أسمائك وصفاتك. ولا يصبح الإنسان صاحب استحقاق لمثل هذا النداء إلا حينما يصلح أمره، بأن يدخل باب رحمة وحرمة معصوم كأبي عبد الله الحسين عليه السلام من مسارٍ يبدأ بالإيمان برسالة كل نبي من الأنبياء، منذ آدم عليه السلام حتى اكتمال نور الله بمحمد ﷺ. ثم يطهّر قلبه حتى يستقر فيه وفي روحه ووجدانه حقيقة إمامة الولاية المحمدية التي بدأت مع الوصي الأمير عليه السلام وتكتمل -بإذن الله- مع ظهور دولة الحق بخروج قائم آل محمد ﷺ. ثم يعمّق هذا البعد في إيمانه، فيسلّم على الإمام الحسين عليه السلام صاحب المقام المزار سلام العارف بحرمته، وليجرؤ بثقة بعدها، فيشهد الله وملائكته على ما في قلبه من إيمان تجاه الإمام

١- كل صفة أو اسم إلهي إنما يعود للفظ الجلالة الله كاسم الإله، والسيد، الملك، الرازق، الرحمن الرحيم... إلخ.

الحسين عليه السلام بأنه الإمام الحق[1]، وأنّ نظام الإسلام قام على يدي الأئمة الأطهار عليهم السلام.

حين يحصل عند الزائر هذا الإيمان، عندها فقط يحق له أن يكون ممن يدخلون زمرة محمد وآل محمد، لأنه يكون حينها تحت ظل وصاية وإمامة محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله. فينادي ربه بكلمة «اللهم».

بعد النداء، يأتي القسم على الله، ولا بدّ أن يكون قسماً بأعاظم الأمور. لقد أقسم الله تعالى في كتابه العزيز بالعصر، والشمس والقمر... بأمور عظيمة. والإمام المنتظر عجل الله فرجه -الذي تنسب الزيارة إليه- أقسم بحرمة هذا المكان «المنيف».

نحن نعلم أن للزمان حرمة، كشهر رمضان المبارك مثلاً، له حرمة وقدسية معيّنة. فنتقرّب إلى الله عز وجل مستفيدين من تلك الحرمة والقداسة. كما أننا نعلم مما سبق، أنّ لشخص المعصوم وللمكان حرمة وقداسة أيضاً.

النتيجـة:

عليه فحينما نجد في بعض الموارد من الزيارة أن الزائر يتوجه إلى ربه عبر توجهه إلى من يتولاه من النبي والآل عليهم السلام.. فقد يثير الأمر في أنفسنا بعض الغرابة لما في ذلك من مخالفة للمبدأ الإسلامي الذي أسلفناه في طبيعة العلاقة مع الله.. وهذا الاستغراب لا بدّ معه من متابعة لصيغ الأدعية التي نذكر فيها النبي والآل عليهم السلام.. خاصة منها تلك الواردة في الزيارات، وبالأخص في زيارة الناحية لنستكشف طبيعة الموقف وحيثياته..

١- قد أدّى حق الإمامة. انظر مقطع الشهادة ص٦٨.

وأول ما يطالعنا أن الدعاء يبدأ بعد ذكر السلام على الإمام عليه السلام والأنبياء والرسل عليهم السلام.. وبعد ذكر مآثر الأئمة ومآثر الإمام الحسين عليه السلام وبعد التأكيد على الارتباط العقائدي بالله. مما يكشف عن ذوبان الإمام عليه السلام في الله سبحانه.. بحيث لم يبق من شيء عند الإمام عليه السلام وفي حياته إلا وكان مرتبطاً بالله سبحانه.. حتى صحّ القول: إن الإمام عليه السلام هو مظهر من مظاهر رحمة الله وآيته الكبرى..

بعد هذا البيان يكون الدعاء بحرمة الإمام عليه السلام والمكان الذي دفن فيه.. وهذا يؤكّد على معطيات صياغة الدعاء وسياقاته والتي منها:

١- صيغة وسياق القسم بحرمة المكان الذي دفن فيه الإمام الحسين عليه السلام.. والقسم «بمحمد خاتم النبيين، ورسولك إلى العالمين أجمعين، وبأخيه وابن عمه الأنزع البطين، العالم المكين.. وبفاطمة سيدة نساء العالمين.. وبالحسن الزكي.. وبأبي عبد الله الحسين.. وبأولاده المقتولين.. وبعترته الطاهرين.. وبعلي بن الحسين، وبمحمد بن علي.. وبجعفر بن محمد.. وبموسى بن جعفر.. وبعلي بن موسى.. وبمحمد بن علي.. وبعلي بن محمد.. وبالحسن بن علي.. وبالحجة على الخلق أجمعين.. أن تصلي على محمد وآل محمد.. وأن تجعلني في القيامة من الآمنين المطمئنين الفائزين الفرحين المستبشرين».

فهذا النوع من القسم يذكّر بصنوف القسم الوارد في القرآن الكريم من مثل «والعصر...» «والشمس وضحاها...» إلى ما هنالك من أنواع القسم الذي يبرز عظمة ما تُقسم به عند الله سبحانه..

وبالتالي فهل هناك ما هو أعظم حرمة عند الله سبحانه من النبي والآل عليهم السلام حتى نؤدّي به القسم لله سبحانه ونتقدّم إليه سبحانه راجين منه أن يستجيب دعاءنا الذي أول ما نطلق فيه هو الدعاء لله

سبحانه أن يصلي على محمد وآل محمد ﷺ.. فيكون القسم هو محمد وآله ﷺ.. ويكون الذي ندعو له الله هو محمد وآله عليهم السلام.. لنثني بعد ذلك بأن ندعو الله بما يجعلنا من أهل الآخرة الآمنين المطمئنين، الفرحين، المستبشرين..

٢- **سياق الأولويات في الدعاء:** إن أهم الأولويات التي يتقدّم بها الزائر في دعائه إلى ربه سبحانه هي بعد الآخرة أن يجعله من جماعة الإسلام الصلحاء، الصادقين في القول والعمل، المجاهدين ضد البغي، المتحصّنين من مكائد أهل النفاق والحسد والسوء.. «اللهم اكتبني في المسلمين، وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين، وانصرني على الباغين، واكفني كيد الحاسدين، واصرف عني مكر الماكرين، واقبض عني أيدي الظالمين، واجمع بيني وبين السادة الميامين في أعلى عليين، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين، والصدّيقين والشهداء والصالحين، برحمتك يا أرحم الراحمين» (زيارة الناحية).. فهذا الدعاء يبرز روحية العلاقة مع الله على أساس المهام والدور التاريخي المنوط باتباع الرسالات الإلهية في الثبات والمقاومة والجهاد، ابتغاء الحب لله سبحانه ولأهل الصلاح والولاء من خلقه، إذ بهم المعونة والأنس في العلاقة مع الله سبحانه وتعالى.. وهو أنس يستهدف إعمار الأرض والخلود في دار القرار بالآخرة..

٣- **سياق المطلب التربوي:** هو تنشئة الموالي والزائر على أسس من القيم الإلهية في بناء الذات المؤمنة بالخط الإلهي المتحرّك في كل شؤون الحياة على هدي من اللطف والرحمة والعناية الربانية، لذا تقول الزيارة: «اللهم جلّلني بنعمتك، ورضّني بقسمك، وتغمّدني بجودك وكرمك، وباعدني من مكرك ونقمتك.. اللهم اعصمني من الزلل.. وسدّدني في القول والعمل، وافسح لي في مدة الأجل.. واعفني من

الأوجاع والعلل.. وبلّغني بموالي وبفضلك أفضل الأمل»..

وهنا يبدأ السياق التربوي للدعاء يدخل في إطار حلقة العلاقة مع أهل الولاء، إذ في ذلك تربية للذات إنها تحتاج إلى المعونة مع الآخر خاصة إذا كان الآخر هو صاحب الولاية.. إذ القدوم على الله سبحانه كما يكون بمستوىً فردي، فهو يكون أيضاً على مستوى الجماعة، والموالي هو الممثل لعنوان الجماعة في وفودها على الله سبحانه وتعالى..

٤- ثم تختتم الزيارة بأدعية ومطالب يتوجَّه بها الزائر في دعائه إلى الله سبحانه متمكناً من حسن ظنه واعتقاده بالآل وبحرمة الأمكنة التي طوت أجسادهم الطاهرة الشريفة، فيخاطب ربه قائلاً:

«اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمَّدٍ، واقبل توبتي، وارحم عبْرتي، وأقلني عثْرتي، ونفِّس كُربتي، واغفر لي خطيئتي، وأصلح لي في ذريتي».

«اللهمَّ لا تدعْ لي في هذا المشْهد المعظَّم، والمحلِّ المكرَّم، ذنْباً إلا غفرْته، ولا عيْباً إلا سترْته، ولا غماً إلا كشفْتهُ، ولا رزقاً إلا بسطتهُ، ولا جاهاً إلا عَمرْتهُ، ولا فساداً إلا أصلحته، ولا أملاً إلا بلَغته، ولا دعاءً إلا أجبْته، ولا مضيقاً إلا فرَّجته، ولا شمْلاً إلا جمعته، ولا أمراً إلا أتْممته، ولا مالاً إلا كثَّرته، ولا خُلُقاً إلا حسَّنته، ولا إنفاقاً إلا أخلَفته، ولا حالاً إلا عمرته، ولا حسوداً إلا قمعْته، ولا عدواً إلا أرديته، ولا شراً إلا كفيته، ولا مرضاً إلا شفيته، ولا بعيداً إلا أدنيته، ولا شعثاً إلا لمته، ولا سؤالاً إلا أعطيته.

اللهمَّ إني أسألك خير العاجلةِ، وثوابَ الآجلةِ، اللهمَّ أغنني بحلالك عن الحرام، وبفضلك عن جميع الأنام، اللهمَّ إني أسألك علماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ويقيناً شافياً، وعملاً زاكياً، وصبراً جميلاً، وأجراً جزيلاً.

اللهمّ ارزقني شكرَ نعمتك عليَّ، وزِدْ في إحسانك وكرمك إليَّ، واجعل قولي في الناس مسموعاً، وعملي عندك مرفوعاً، وأثري في الخيرات متبوعاً، وعدوّي مقموعاً.

اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وآل محمد الأخيار، في آناءِ الليل وأطرافِ النهار، واكفني شر الأشرار، وطهِّرني من الذنوب والأوزار، وأجرني من النار، وأحلّني دار القرار، واغفرْ لي ولجميع أخواني وأخواتي المؤمنين والمؤمنات، برحمتك يا أرحمَ الراحمين».

وهكذا تبقى الزيارة عنصر حفظ لخط العلاقة مع الله سبحانه.. وجسر تواصل مع مظاهر آياته سبحانه.. من أهل مقصد وحيه وخزان علمه وصراطه المستقيم..

كما وتبقى سبيل التكامل بين جماعة أهل الولاء والتسليم في نزوعهم الإيماني وقواعدهم الاعتقادية وثقافتهم الولائية وقيمهم السلوكية والجهادية الناهضة باسم الله وحفظ إرث النبي الأكرم محمد ﷺ..